

عن

وجود الله

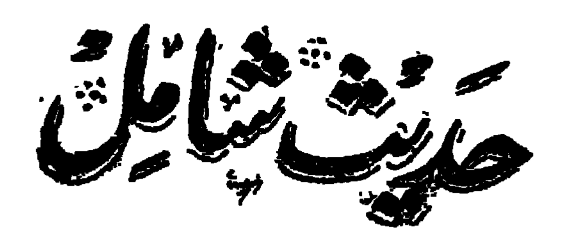
تأليف
محمد عبد الظاهر عبد الرحمن
كليـة الطب البشرى
جامعة اسيوط

مطبعة البرلمان ٧ ش الترجمان العتبة

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمود دياب

جراح بالمستشفى الملكي المصري



حديث شامل

عن

وجود الله

تـأليف

محمد عبد الظاهر عبد الرحمن

كليـــة الطب البشرى

جامعة أسيوط

مطبعة البرلمان ٧ ش الترجمان العتبة

ت ٩٠٦٢٩٢٣ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للاستاذ الدكتور محمد سلام مدكور

استاذ ورئيس قسم الشريعة بكلية حقوق القاهرة (*)

ذات يوم فى صيف عام ١٩٦٨ اتصل بى شاب لم يسبق لى معرفته وطلب منى أن أحدد له موعداً للقاء . وعلمت من حديثه أنه طالب بكلية طب أسيوط وأن موضوع المقابلة يتصل بمسألة علمية يريد أن يتحدث معى بشأنها .

وكعادتى من الاستجابة لكل لقاء علمى ورغبتى فى تشجيع المشتغل بالعلم استجبت له . . فجاءنى وإذ بى أمام شاب حديث السن ضئيل الحجم . . واسع الافق يتميز بهدوء العبارة وسلامة الأسلوب مع محاوله الدقة فى العبارة . . وميل واضح إلى النواحى الفلسفية . مما جعلنى أتساءل عن سر اتجاهه إلى القسم العلمى والتحاقه بكلية الطب مع مايبدو فيه من صلاحية للدراسات الادبية . فأجاب بأن هناك فكرة تسيطر عليه من بدء دراسته فى الثانوى وهى اثبات وجود الله الذى لاشك فيه عن طريق العقل و العلم والكائنات وأنه سخر نفسه للالتحاق بالقسم العلمى ليأخذ حصيلة تمكنه من هذا البحث العلمى والتحق بكلية الطب ليتعرف عن قرب أثر تكوين الانسان وما فيه من أجهزة دقيقه فى التأكد من وجود الله وحده . . وهكذا كان الحديث الأول بينى وبينه . فشدنى هذا التفكير من ذلك الناشىء الصغير إلى أن أطيل الجلسة وأن استمع إلى أفكاره

(*) مقرر موسوعة ناصر الفقهيه ورئيس لجنة الشريعة بالمجلس الاعلى للشئون الإسلامية وقد مثل جمهوريتنا فى عديد من المؤتمرات والمواقف الإسلامية الناجحة .

فقلت وماهى المسألة العلمية التى تريد أن تتحدث معى بشأنها فأجاب بأنى منذ فترة طويلة وأنا مستغرق بالتفكير والبحث فيما اتجه اليه من اثبات وجود الله عن طريق الميتافيزيقيا والفلسفة وعن طريق البحث المجرد عن كل عاطفة والذى يلتزم بحدود التفكير العقلانى وحده حتى تكون فيه قوة دافقة لاتترك للباطل واشياعه فرصة الادعاء والافتراء .

واستطرد قائلا أننى بعد طول دراسة وبحث استطعت أن أكتب مذكرة قد تصلح أن تكون كتابا فى الموضوع وقد طرقت ابوابا عديدة وأخذت وعودا كثيرة من كثير من الشخصيات حول تشجيعى دون أن أجد لهذا نتيجة حتى ولا بالتوجيه العلمى ولما سمعته ممن اتصلت بهم من تشجيعك الناشئين بالتوجيه والارشاد .

فذكرنى ذلك بنفسى حينما كنت ناشئاً فى مقتبل الحياة وكنت متطلعا طموحاً وكنت شغوفاً بالأدب والاجتماع وتراجم زعماء الفكر وقادته .

وحينما بدأت أتطلع للنشر بجريدة الأهرام وبعض المجلات وأنا طالب فى نهاية المرحلة الابتدائية فأوصدت فى وجهى بعض الابواب والنوافذ ووجدت منفذاً إلى بعضها الآخر حيث نشرت لى الأهرام فى ذلك الحين كما نشرت بعض المجلات الدينية مما كان له أكبر الاثر فى نفسى ومما كان دافعاً قويا لى فى السير قدماً لاشباع هوايتى ودراستى

كما ذكرنى هذا الشاب الناشىء وهو يحدثنى عن الوعود التى سمعها دون أن يرى لها حقيقة : وما بدا على ملامحه وهو يحدثنى عن ذلك من حسرة وألم بما مر بى وأنا صغير ناشىء مثله وقد وجدت مقالاتى وافكارى طريقا إلى كثير من الصحف والمجلات دون أن تعرف هذه الصحف والمجلات عن الكاتب

سوى اسمه وحينما استهوانى أن ادرس حياة السيد جمال الدين الافغانى واكتب عنه وأنا طالب بالثانوى وقد ملأت هذه الدراسة كل اوقات فراغى وتشبعت به واتصلت بعلية القوم فى ذلك الحين من رجال الفكر والسياسة من المصريين وغير المصريين وقمت بدافع من قوة الشباب وحماسه إلى تشكيل لجنة ممن اتصلت بهم لاحياء ذكرى السيد جمال الدين الافغانى فتسابقت الصحافة الى تلقى اخبار هذه اللجنة وكنت مع حداثة سنى المتحدث باسمها وفى ذات يوم ذهبت بنفسى إلى احدى الصحف اليومية السيارة التى كانت تنشر لى كل ما أرسله اليها من مقالات او اخبار عن اللجنة المذكوره لاقدم لهم مقالا واظهر لهم نفسى ليتعرفوا على شخصى كما تعرفوا على اسمى من قبل ولما دخلت بطاقتى الى رئيس التحرير فسرعان ما اذن لى بالدخول ولما رآنى استدعى حاجبه قائلا انا اذنت للاستاذ مدكور بالدخول فكيف تأذن لغيره . . فقلت بدورى انا ياسيدى ـ مدكور ـ فنظر إلى وقال انت الذى تكتب وننشر لك وانت الذى تتحدث باسم لجنة احياء ذكرى جمال الدين الافغانى ـ فقلت باعتزاز وفخر : نعم ياسيدى وهذا مقال آخر اقدمه بنفسى لجريدتكم الغراء للنشر . لكنه دون أن ينظر فى المقال ولا أن يأذن لى بالجلوس ردها لى بعنف قائلا لا يوجد بالجريدة فراغ لنشرها . وطلب منى الانصراف . فخرجت وكلى الم وحسرة لهذه المقارنة الغريبة .

وذكرنى ايضاً حديث هذا الشاب الناشىء بواقعة أخرى حينما أخرجت كتابا بعنوان جمال الدين الافغانى باعث النهضة الفكرية فى الشرق وقد قدم له المرحوم . مصطفى عبد الرازق (باشا) ونشر ذلك الكتاب ووصلت إلى رسالة من أديب كبير من لبنان يخبرنى بقدومه إلى القاهرة ويطلب منى لقاءه بفندق الكونتننتال وكان ذلك فى عام سنة ١٩٣٧ . . ليعرض

على رغبته فى أن يسهم معى فى اخراج كتاب آخر حول هذا الموضـــوع .
وفى الموعد المحدد ذهبت اليه وأنا أكاد أطير فرحا وكلى أمل وتطلع فلما مثلت أمامه وقدمت له نفسى نظر إلى نظرة كلها عجب أو لعلها ندم وقال « شوأنت مذكور صاحب الكتاب » فقلت بكل فخر واعتزاز نعم ياسيدى وقد جئت بناءاً على خطابك لى وكان الخطاب معى (ومازال عندى) وبعد فترة قصيرة فى مقياس الزمن لكنها طويلة فى نفسى ودون أن يأذن لى بالجلوس تمكن من مجلسه ووضع قدما على الأخرى وأخبرنى بانه قد عدل عن فكرته وأذن لى بالانصراف . فانصرفت ممتلئاً حسرة وألماً ناقماً على صغر سنى وعلى تطلعى وطموحى ...

ثم تذكرت لقاء المرحوم مصطفى عبد الرازق (باشا) لى فى منزله العامر وفى مكتبته الفسيحة خلف سراى عابدين وقد رحب بى واستمع إلى حديثى وأعطانى من وقته الكثير وقرأت عليه جملا من كتابى وقبل مشكوراً أن يملى على مقدمة لهذا الكتاب حتى أنسانى هذا اللقاء الجميل أننى بحضرة عالم كبير وأزال من نفسى كل المهابة والخسوف انطلقت معه فى الحديث ثم تذكرت لقاءه لى بعد أن أخرجت الكتاب وذهبت اليه لاهديه له فى منزله وقد كان وزيراً للاوقاف وكان معه جملة من الوزراء وبعض كبار رجال حزب الاحرار الدستوريين فقام واستقبلنى من على درجات السلم (السلاملك) فاكبرته فى نفسى ايما اكبار وقدرت الموقف فتعجلت الانصراف محافظة له على وقته .

وهكذا التاريخ يعيد نفسه . . رأيت نفسى فى أيام شبابى ونشأتى حينما سمعت بحديث هذا الشاب الناشىء فكان هذا دافعاً قوياً لأن استجيب له واسمع لحديثه وأعطيه من وقتى ما يشبع رغبته . . . فقرأ على الكثير مما كتب ووجهته الى كثير مما يحتاج إلى التوجيه وناقشته فيما يحتاج إلى مناقشة

وعملت جاهداً على الا يصدم بما صدمت به من قبل وأن افتح أمامه أبواب الامل والتطلع والطموح ورحم الله عمر بن عبد العزيز حينما جاءه وفد ليعرض عليه امراً ما فانتخبوا واحداً منهم هو أصغرهم فقال عمر بن عبد العزيز - هلا تحدث من هو أسن منك فقال له المرأ بأصغريه قلبه ولسانه فكانت مثلا .

تردد على الفتى الناشيء محمد عبدالظاهر مرات ومرات وفى كل مرة يقرأ على شيئاً من كتابته ثم طلب منى أن اكتب له مقدمه لهذا الكتاب . فرحبت دون تردد وانا لا ادعى اننى قرأت الكتاب كله او بتعبير أدق انه قرأ على كل فصول الكتاب ولكن الكتاب بين يدى القارىء يتحدث عن نفسه ويحكم عليه القارىء بما يحكم وأنا لا يعنينى إلا أن أقدم صاحب الكتاب . وأن آخذ بيده ليسير قدماً نحو طموحه وتطلعه وإنى أتمنى له أن يكون قد وفق فيما كتب وآمل تكون لكتابه أثر فى توجيه الناشئة إلى إيمان كامل وعقيدة ثابتة وخاصة بالنسبة لهذا الجيل المتطلع إلى البحث والدرس والقراءة فى الموضوع .

صدق الله العظيم : (وفى الأرض آيات للمؤمنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فقد جمعت هاتان الآيتان من آيات الله المعجزات الكونية والنفسية القاطعة بوجود الله وقدرته ولعل ما كتبه الشاب الناشيء يدور فى فلك هاتين الآيتين .

دكتور

محمد سلام مدكور

حدائق الزيتون فى أول يناير ١٩٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

بادىء ذى بدىء وبينما أقدم لقرائنا الأعزاء كتابى الأول أود أن أكتب الخطوط العريضة للحياة كما أراها :

فالحياة عقيدة ثم عمل . . والعقيدة هى اساس العمل وهى الدافع إليه . . والعمل هو وسيلة العقيدة وأداتها والحياة على الأرض أيضا مكان ثم زمان . . وللمكان خطره وأهميته وللزمان قيمته ووزنه . . فنحن فى حياتنا نتأثر بالمكان و نؤثر فيه . . كما أن مسيرة الزمن تنهى وجودنا من هذا المكان وتفنى كل آثارنا فيه .

وأعنى بذلك أن ثمـــة مسيرة زمنية معينة .. فى مكان ما تحتوى الانسان (الذى يؤثر فى ذلك المكان وذلك الزمان باعماله التى يقوم بها) إستناداً إلى عقائد معينة يؤمن بها . .

فاذا ما كانت عقيدة الانسان قوية وثابتة كانت بواعث أعماله أصيلة وغير مصطنعة وكان الانسان إنساناً قوياً صلباً ... مؤثراً فى المكان الذى فيه أيا كان ... مالكا لزمام الزمان الذى يدور به أو يجلس به من عوالم الزوال والفناء إلى عالم الخلود والبقاء .

أما إذا كانت عقيدة الانسان ضعيفة يتخللها الوهن ... وتعدو عليها عاديات الفناء فان الانسان يعد فى نظرى ميتاً وهو حى ... ومهما كان أو تكون مطامعه أو أعدائه أو مثله فى هذه الحياة .

ذلك أن دورة الزمن ستلغى أثره . . . كما ستلغى كل آثاره . . . وستبقى لنا أو علينا المعانى والقيم ولن تبقى سواها .

ومدركا ذلك كله . . . عمدت إلى تقديم هذا الكتاب لاخوتى من بنى البشر . . . لأبين لهم طريقة من طرق التفكير العقلانى المتحرر من العاطفة ومن الوهم ومن الخرافة ... النقى من الجدل العقيم والسفسطة الكلامية الغير مجدية ... الباحث بجدية لا تعرف العبث وباهتمام لا يعرف الاهمال له سبيلا ... عن مستقبل الانسان ومصيره الأبقى بعد عوالم الزوال والفناء التى يعيش فيها فى دنياه .

راجياً المولى جل وعلا أن يهدى به قلوب حارت وضلت إلى نوره الاسمى وإلى صراطه المستقيم والله حسبى فنعم المولى ونعم الوكيل :

ومن ذلك أرجو أن أوضح لقرائنا الأعزاء دوافعى إلى تقديم هذا الكتاب ومنهاجى فيه .

وحينما أتحدث عن الدافع فانى أذكر بصدق وصراحة أننى لا أعرف على وجه التحديد لحظة زمنية بدأت بعدها فى الاهتمام بالفكر المصيرى .. كما أننى لا أدرك على وجه الحسم واقعا إلى هذا الاهتمام أكثر من كونه اهتمام بما هو جدير بالاهتمام من مصير الانسانية الحقيقى . غير أن ما أدركه بوضوح ظواهر معينه لهذا الاهتمام تبرز فى تلك المناقشات المستفيضة التى كانت بينى وبين أخى الأكبر والذى يحمل نفس إسمى منذ أن كنت فى الصف الرابع من المرحلة الابتدائية وكان هو وقتها يدرس كطالب فى كلية المعلمين لقد استمرت مناقشاتنا تلك إلى أن التحقت بالمدارس الثانوية والتحق أخى الأكبر بقسم الدراسات العليا فى الفلسفة وعلم النفس .. أيضا كانت هناك مناقشات فى نفس الوقت مع أصدقائى والتى استمرت حتى وقت قريب .. وكانت تعبر أو تظهر مبلغ اهتمامى بالفلسفة المصيرية .. كاهتمام عميق يشغل كل الفكر والجهد .. وما زلت أذكر تلك الليالى الساهرة وتلك الجلسات المحققة التى كنت أشغلها فى مناقشة جادة

مع أصدقائى : أحمد حماد ، حسن محمد سالم ، أحمد عسكر ، محمد مروان ، وكان مظهرنا فى البحث مظهر من يبحث عن مستقبله الحقيق بجدية لا تعرف الاهمال وبموضوعيه لا يعرف العبث لها سبيلا .

كما أننى ما زلت وبكثير من السعادة أذكر هذه المناقشات الجادة الموضوعية التى كانت تدور فى كليه الطب مع أساتذتى فيها الدكتور نبيل عفت والدكتور محمد مندور والدكتور أحمد نصر حول ما يمكن أن نبرهن به إنسانيا وتكنولوجيا من الطب على بطلان المزاعم الملحدة .

وهكذا كانت حياتنا السابقة التى ما زالت فى مسيرتها وما زال هذا الاهتمام بمصير الانسانية ينبض به قلبى ليجرى فى الدم فياضاً قوياً ...

وعن المنهاج . . فقد عمدت إلى تقسيم الكتاب إلى مباحث يتحدث أولها عن الفكر وأهميته ويتحدث الثانى عن الوضع الراهن فى هذه الحياة والمذاهب المتضاربة فى العالم حول الايديولوجية المصيريه ويتحدث الثالث والرابع والخامس عن الادلة القاطعه علميا وعقليا التى تثبت وجود الله وتنفى وتمحى أقوال الملحدين ويتحدث السادس والأخير عن الثغرات التى قد يثيرها المضللون حول وجود الله وما يمكن أن يرد به عليهم إخماداً للفتنة ومقاومه للشر والاشرار .

ولعلى ـ وهذا أملى ـ قد وفقت فى أن أظهر الحقيقة واضحة جلية أمام إخوتى من بنى البشر ـ ولعلى أيضا قد ساهمت بهذا الجهد المقل فى رفعهم إلى التفكير والاهتمام بمصيرهم الحقيق . . يوم لا ينفع مال ولا بنون . . إلا من أتى الله بقلب سليم .

المؤلف

م . عبد الظاهر . ع

المبحث الأول

دعوة إلى الفكر

تروى الأساطير أن جماعة يشكلون دولة أو شبه دولة كانت تكره الحكام كراهة شديدة وتعتبرهم رمزاً للانانية وحب النفس . . . وكانوا لذلك يتركون الحاكم يحكم كما يشاء سنة واحدة وسواء عدل وأصلح أو ظلم وأرهص فانهم بعدها يعزلونه من حكمه ويلقونه فى غابة مليئة بالوحوش والهوام حيث يكون هلاكه محققا .

وهكذا تعاقبت الأيام على هذه الجماعة ومع كل عام يمر تشهد الانسانية مصرع أحد حكامها بين براثن وحش مفترس وبدون ما رحمة أو شفقة . . . وبدون ما تغير فى تلك العادة العجيبة عند هؤلاء القوم .

حتى جاء حاكم عاقل فطن فما أن تولى الحكم حتى نظر بعين الاهتمام إلى تلك الغابة الموحشة فأشاع الامن والسلام بين ربوعها حتى أضحت جنة خضراء مزهرة وحتى أضحت فى غاية من الروعة والجمال وبعد عام ذهبوا به ليلاقى حتفه فاذا بهم فى واقع الأمر قد ذهبوا به إلى جنة نعيم .

ويستوى عندى أن تكون هذه الرواية قد حدثت بالفعل أو انها من أطياف الخيال لكن الذى أعنيه منها ثلاثة أشياء . .

الأولى : أن أولئك الذين لم يفكروا فى مستقبلهم أو فى أمنه وسلامه

كان الهلاك لهم حتما محتوما تماماً كما تموت الطيور المستأنسه التى لا تفكر فى حد السكين إلا عندما يتقاطر به دمها وتنتهى به حياتها

الثانى : ذلك الذى أمعن التفكير فى مستقبله استطاع أن يحصل على الأمن والسلام فى حاضره ومستقبله .

الثالث وهو الأهم : أن هناك تشابهاً وثيقاً بين الانسان فى حياته وبين هذه الأسطورة على غرابتها ، فنحن نعيش فى تجمعات بشرية فوق سطح كوكب الأرض المعلق فى الفضاء والذى يدور بنا دورات منتظمة حول ذلك النجم الجبار الذى يسمونه الشمس وهذا الكوكب السيار يجذبنا إليه . . ويدور بنا حول نفسه . . ويدور بنا حول الشمس . . كل ذلك فى الفضاء اللانهائى . . وبدقة كاملة . . وبتوقيت لا يخطىء .

وعلينا نحن أن نفكر وأن نسأل أنفسنا . .

لماذا يجذبنا هذا الكوكب السيار اليه ألأنه يشفق علينا أن نضيع فى هذا الفضاء اللانهائى ؟ . . أو أنـه يريد بنا أن يحتفظ بمظهر عامر وجميل ؟ . . أولا هذا ولا ذاك ولكن قوة جبارة أمرته بذلك فأطاع راضيا أو كارها .

لماذا يدور بنا هذا الكوكب حول نفسه ؟ . . ألأنه يريد للبشرية أن تتقاسم الليل والنهار فيما بينها كنموذج للعدل ونبراس الأمانة .

لماذا يدور بنا هذا الكوكب حول الشمس . . ورجالات العلم تقول لأن الشمس تجذب الأرض اليها

ولكن . .

هذه الشمس المضيئة لماذا تجذب كوكب الأرض اليها . . هل كان بينهما

علاقة عاطفية قديمة يحافظان عليها على مر الأيام دون أن ينقضها أى منهما أو يسلك ما سلوك غادر أو لئيم .

وعلى هذا الكوكب السيار نجد أنفسنا مغمورين فى بحر لجى من الهواء ... نموت إذا ماذهبنا عنه بعيداً فصدورنا تعلوا وتنخفض مع كل دفعة منه تدخل حاملة عوامل الحياة ... أو تخرج وبين طياتها عوامل الموت والفناء ... أليس علينا أن نسأل أنفسنا كيف استطاع هذا الكوكب الأرضى أن يحصل على هذا البحر اللجى من الهواء ... أكان فى ذلك ماهراً أكان فى ذلك داهية محتالا ... أم أنه أعطى ذلك من قوة عظمى دون ما مهارة لديه أو جهد مبذول . ومن حولنا نجد الأنهار الجاريات ... التى منها نروى غلة الظمأ وعليها نعيش وبدونها لاتكون لنا حياة ... ولقد نفكر كذلك هل أدرك كوكب الأرض بذكائه حاجتنا إلى الماء السلسبيل تجرى به الأنهار ... ؟ وإلى بحار واسعة ومحيطات شاسعة ... أم أن ذلك كان بتدبير قوة عظمى نشكر لها هذا التدبير ونحمدها عليه .

كل هذه وتلك ظواهر كونية وطبيعية يجب ويلزم للضرورة التى لا تنقضها ضرورة أن يفكر الانسان فيها ويتدبر منها ما يعينه على ادراك حقيقة وجوده على هذه الحياة وبالتالى ما يعينه على سلوك السبيل الآمن الذى يحفظ له الأمن والسلام والرفاهية حاضراً ومستقبلا .

ولقد تتجلى ضرورة التفكير فى صورته الحية فى اولئك الذين كان عليهم فرضاً وواجباً أن يتفهموا الطبيعة بكل ظروفها حتى ينقذوا بذلك أنفسهم من هلاك عاجل وسريع ... ولقد نتمثل ذلك الانسان الأول الذى أحاطت به عوامل الموت كامنة وظاهرة ... تكمن فى الجوع والبرد القارس الزمهرير وتظهر نفسها فى آكلات اللحوم من الوحوش المفترسة التى لا تتوانى عن عزيمة

كلما واتتها الفرصة إلى ذلك أو فى نافثات السم من الزواحف والهوام التى تداهمه بالمنية فى ليل مظلم عبوس أو فى كهف كثيب .

ولم يقرر ذلك الانسان بالعقل أن يفكر ... بل هو قرر بالغريزة أن يفكر وأن يحصل من نتاج فكره على سلوك آمن ... يبقى عليه حياته و يدرأ عنه عـــــوامل الهلاك .

وذلك مـا يماثل تماماً الحركة العصبية اللاارادية التى نطلق عليها « الفعل المنعكس » التى تحدث إذا ما لامس طرف من أطراف الجسم الانسانى مادة ملتهبة أو جسماً حاداً فانه سرعان ما يرتد عنها بعيداً ودون ما تدخل من قواه العقلية ودون ما أمر منها .

وأعنى بذلك أن الفعل اللاارادى المنعكس تقوم به أطراف جسم الانسان دون أن يقرر هو القيام به ... كذلك فان المواجهة السريعة للاخطار المحدقة بالانسان يقررها الانسان تلقائياً ... إذ أنه لايجد بداً من اقرارها إرضاءاً لغريزة حب البقاء التى قررها رجال العلم فى النفس الانسانية واستطراداً من هذا المقام ... يفكر الانسان فى كل ما يجلب عليه مزيداً من الرفاهية فى حاضره وفى كل ما يعطيه مزيداً من الأمن فى مستقبله المرئى ... أو مستقبله البعيد .

ووصولا عبر الزمن إلى جيلنـا الحاضر فان ما ذكرناه آنفا يتجلى فى كل ما يشيده الانسان من حضارة ... فهو مثلا يقيم السـدود على الأنهار ليحصل على غذاء أوفر وعيش أرغد . وهو أيضا يبادر إلى الدفاع عن نفسه أو تدعيم سبل الدفاع عنها تأمينا لسلامته حاضرا ومستقبلا ... وهنا أيضا يكون التفكير وتكون ضرورته الملحة ...

وهنا يجب أن يكون التفكير ممتداً بغير حدود و بغير نهاية ومركزا على المستقبل الحقيقى الذى نعنى به ذلك المستقبل الذى يبدأ بتلك النقطة الزمنية التى تنتهى عندها حياته .

و إذا كنا بصدد ذكر الظروف و الملابسات التى تحيط بالانسان فى حياته والتى توجب عليه التفكير فى مستقبله الحقيقى فاننا نجد لزاما علينا أن نذكر وأن نعى شيئين هامين :

الأول : أن الانسان يعيش على سطح الكرة الأرضية ويوصف بصفات الأحياء من حركة ونمو و إدراك ، وإحساس ... فترة من الزمن قد تطول أو تقصر ثم بعدها تنتهى هذه الحياة بالنسبة له و تسلب منه صفات الأحياء ويصير فى عرفنا ميتاً لا يتحرك .. لا ينمو ... لا يحس ... لا يفكر ... ولا يدرك ... ومن الثابت حتى الآن أنه ليس هناك من البشر من استطاع أن يتجنب الموت أو يتحاشاه ... ولقد أدركت البشرية ذلك منذ القدم .. ونعى به شعراؤها وحكماؤها .

فقال أحدهم :

كل ابن أنثى و إن طالت سلامته   يوما على آلة حدباء محمول

وقال آخرون :

ألا كل حى هالك وابن هالك   وذو نسب فى الهالكين عريق

الثانى : و إذا كانت حياة الانسان على الارض محدودة بزمن محدود .. فما أجدره بالتفكير فى مصيره ومستقبله بعد هذا الزمن المحدود .. إن

المستقبل الحقيقى [1] للانسان لايبدأ إلا بتلك النقطة الزمنية التى تنتهى عندها حياته .. ومن ثم كان لزاما عليه أن يعمد أول ما يعمد فى حياته إلى التفكير فى هذا المستقبل تفكيراً جديا وبدون عبث .

لقد استطاع الحاكم العاقل الفطن الذى أوردته الأسطورة القديمة التى صدرنا بها الكلام أن يحصل على الامن والسلام فى حاضره ومستقبله حينما فكر فى مستقبله وأمعن التفكير وعلينا نحن إذا ما كنا نطلب الامن والسلام للحاضر الذى نحياه وللمستقبل الغامض الذى سنجد أنفسنا فيه أن نفكر وأن نمعن التفكير بجدية لا تعرف العبث وباهتمام لا يعرف الاهمال له سبيلا .

وإذا كنت قد ذكرت فى مواضع عديدة أن التفكير فى المستقبل الحقيقى يجب أن يكون تفكيرا جادا وبدون عبث .. فما ذلك إلا لأننى رأيت وسمعت الكثير عن رجال يفكرون فى مستقبلهم الحقيقى وكأنه أمر لا يعنيهم ولا يهمهم وهؤلاء لا يفكرون إنما هم يعبثون ـ ذلك أن التفكير فى المصير الانسانى له مقوماته وله شرائطه التى سنتناولها تفصيلا فيما بعد .. (هـذا فضلا عن أولئك الذين لا يفكرون إطلاقا) فى مستقبلهم الحقيقى ويستنكرون مجرد التفكير فيه .

ولقد أجد لزاما على أن أبدى رأيا فى أولئك الذين ينصرفون كلية عن التفكير فى مستقبلهم الحقيقى وحينئذ أذكر أن هؤلاء قد فقدوا كل مقوماتهم

---

(١) السنوات القادمة فى حياة فرد ما ـ لا أعتبرها مستقبلا وإنما هى حاضر متقدم ... أما المستقبل فانى أقصره على حياة ما بعد الموت ... ذلك أن الانسان يقطع رحلة فى حياته نحو الموت وسواءاً كان مرفها أو معذبا فى هذه الرحلة فان رحلته هذه تنتهى بشىء معلوم ثم نواجه الشىء الجدير بالاهتمام وهو الموت وما بعده .

الانسانية وأنهم قد أستهانوا بمقدراتهم وعبثوا بها ، وعلى الجملة فانهم قد ظلموا انفسهم ظلما بينا .

ذلك أن الاسماك فى بحورها والطيور فى أجوائها والوحوش فى أوكارها ، والهوام فى أدغالها وأحراشها تعيش وتنهض بمهام حياتها فتسعى للحصول على قوتها وتتناسل وتحافظ على نوعها تماما كما يفعل الانسان وحينما نعلن نحن أن الانسان يفكر فأنها هى أيضا تفكر [1] وبجدية من أجل الحفاظ على حياتها أو الانتصار على أعدائها أو حتى من أجل العدوان أما حينما نقرر نحن أن الانسان يفكر فى زمان ما بعد الموت فان ذلك يعد بمثابة التفريق بينها وبين الانسان أنها كما هو المعروف لاتفكر لا فى حاضرها الذى تحياه فاذا ما تخلى انسان عن التفكير فى شأن ما بعد الموت فانه يعد متنازلا عن انسانيته بل ويجب الحاقه بأية فصيلة يختارها من فصائل الحيوان أو الطير فان شاء صار من الارانب وان شاء صار من الضفادع أو من ضفات الطير . وإذ كان الاستاذ العقاد يقول فى شعره

ليس اضنى لفؤادى ... من عجوز تتصابى
ودميم يتحــــالى ... وعليم يتغـــابى
وجهول يملأ الارض ... سؤالا وجـوابـا

فاننى لا اجد أضنى لفؤادى من ذلك الانسان الذى تخرج عليه الشمس ثم لا تلبث ان تغيب ويحل به الليل بظلامه ونجومه ، ويعده النهار بنوره وضيائه ، ويرى البرد ويسمع قصف الرعود ، وبين حين وحين يرى

---

(١) التفكير المقصود تفكير غريزى

ويسمع انين اخوته من بنى البشر الذين بلغت بهم مسيرة الزمان لحظة الزمن الحرجة ، لحظات الموت ، لحظة بدا المستقبل الحقيقى ولقــد يحمل اخاه على كتفه ، ولقد يحثوا عليه التراب بيديه ، وهو يدرك ان مسيرة الزمن لا بد ان تبلغ به لحظة النهاية لحياته او لحظة البداية لمستقبله الحقيقى ، ثم لا يثير كل ذلك فى نفسه تساؤلا حول مصيره بعد الموت ، او يدفعه إلى فكر جاد فى مستقبله او من اين أتى والى اين يذهب .

انه حينئذ يكون اضنى الأشياء الفؤاد ، واكثرها اثارة للاسف والأستياء أما ذلك الذى يعتز بانسانيته ويرى لزاما عليه ان يفكر فى مستقبله الحقيقى فانى اقول له : بان تفكيرك يجب ان يكون جاداً ومتحرراً من العاطفة ومن الوهم

وحينما أقول بالجدية فى التفكير فأنى اعنى أن يكون التفكير موضوعيا وليس القصد به الدخول فى دوامة جدلية مفرغة تنتهى بلاشىء أو تنتهى بمزيد من الحيرة والبلبله ... أن مثل هذا التفكير الجدلى لايفيد بقدر مايحدث من الضرر . . وبقدر مايبدد طاقة الأنسان ويضاعف من شكوكه والآمه . . إن الذى يربط نفسه ومصيره ومستقبله الحقيقى وقيمه ومقوماته بالجدل والسفسطة الكلامية . . يكون كظامىء يجرى خلف السراب ليرتوى . . والماء يجرى حوله يمنة ويسارا . . يفكر . . وهذا شىء حسن ولكن بغير جدية وبغير عناية وبغير اهتمام وبغير موضوعية . . تمام كأن ذلك المستقبل أمر لايعنيه ولايوجب اهتماماً أو عناية منه

وحينما أقول بتحرير الفكر من العاطفة على شتى أنواعها . . فأننى اذكر أن العاطفة ليست معياراً صادقا للحقيقة . . ولكى يكون ذلك واضحا : اذكر أن كثيرا من البشر ممن يدينون بالديانة

البوذية [1] ، يحرقون أنفسهم أحياء ، من أجل بوذا الذى يعتبرونه إلها ولا شك أن هذا العمل ، شحنة ضخمة من عاطفة الحب الولاء ، ولو كانت العاطفة مقياسا للحقائق لكانت هذه الفئة من الناس على حق مطلق ، وعلى النقيض من ذلك نجد أن كثيرا من البشر ممن يدينون بالديانات السماوية يحطم الواحد منهم رأس بوذا دون ما عاطفة أو انفعال ، ولو كان الأمر بالعاطفة لما استطاعت البشرية أن تجد لها طريقا واضحا صادق المعالم بين من يحطمون بوذا ، ومن يحرقون أنفسهم من أجل بوذا .

وإذا كان الأمر كذلك فان على أخى الانسان الذى يحترم إنسانيته ويفكر فى مستقبله الحقيقى ، والذى يهتم بهذا التفكير ويعنى به ويجعله تفكيراً موضوعيا ، وليس سفسطة كلامية أو جدل عقيم ، عليه أن يحرر فكره تحريرا كاملا من جراثيم العاطفة على شتى أنواعها .

وحينما أقول بتحرير الفكر من الوهم والخرافة ، فانى أعنى ذلك التعصب الأعمى الذى نهض كسمة سوداء من سمات عصرنا هذا ، ذلك أن الطفل ينشأ فى هذا الزمان ، وربما فى كل زمان على مبادىء محددة يلقنها له أبويه .

وحينما يشب هذا الطفل عن الطوق ، ويصبح إنسانا ورجلا فى هذه الحياة ، فان ظلام التعصب الأعمى لتراث أبائه وأجداده غالبا ما يعمى عينيه ويصم أذنيه ، وغالبا ما ينسيه البحث الحر المستنير عن مصيره الحقيقى ، ولو كان التعصب لتراث الآباء والأجداد طريقا إلى الحق ، لتعددت الطرق وتناقضت ولما وجدنا فى العالم حقا ولا حقيقة وأود وأن أوكد بقوة -

---

(١) العقيدة البوذية تنهض على أساس عبادة شخص حكيم يدعى بوذا وهى نوع من الوثنية منتشرة فى الهند وبورما وبلاد أخرى .

أن التعصب لتراث الآباء والأجداد بدون تفكير جاد حر مستنير ، متحرر من العاطفة ، هو فى حقيقة الأمر إمتهان لانسانية الانسان ، وتضييع لقدراته لا يدانيه فى ذلك حتى ذلك الانسان الذى يختار علانية أن يترك الانسانية بأثرها ليلحق نفسه بفصيلة الضفادع أو الثعالب أو الكلاب ، وبرغم احترامى لعاطفة الأبناء نحو آبائهم بل وتقديرى لتلك العاطفة ، فانى أكرر أنه ما لم يضع كل إنسان ينشد السلامة والأمن لمستقبله الحقيقى ، ما لم يضع الانسان فى نفسه ، إنه من المحتمل أن يكون آباؤه على باطل ، ما لم يضع ذلك فى حسبانه فان من العبث غير المسئول أن يطلق على نفسه صفة الانسان ، فضلا عن صفة المفكر الجاد .

.

تلك هى مبادئى فى التفكير ، وتلك هى التزاماتى فيه أوضحها وأبين حدودها بينما أوجه دعوة التفكير إلى اخوتى من بنى الانسان لتفكر فى مصيرنا ومستقبلنا الحقيقى ، عسانا نحصل على أمن الحاضر وسلامة المستقبل فلنفكر معاً فى قضيتنا المصيرية الأولى فلنفكر معا فى هذا السؤال الكبير الذى كان وما زال ولن يزال يلح على قلوب الناس وفى عقولهم :

هل هناك حقا إله عظيم أوجد الكون ومن فيه سيرجعنا بعد أن نموت ويدخل المحسنين من الذين آمنوا جنته ، ويعذب الذين كفروا به فى الحياة الدنيا ، ويدخلهم النار ؟ فلنفكر معا فى هذا السؤال الكبير ، وفى قيمته الكبيرة وما من شك فى أن البشرية قد اختلفت كثيراً فى الاجابة على هذا السؤال ، وما من شك فى أن الناس قد ذهبوا فيه مذاهب شتى فهناك منهم من يقول : إن الله هو الذى أوجد العالم ومن فيه وهو الذى سيرجعنا بعد الموت أحياء ،

وهو الذى سيحاسبنا على اعمالنا إن خيراً فخيراً او شراً فشراً »، وهناك ايضا من يقول اننا آتينا إلى العالم صدفة وسنمضى من العالم كما اتينا صدفة وليس هناك شيء اسمه الله ، كما ان الأديان كلها من اختراع البشر وأن الدين افيون الشعوب ، وقبل ان اذكر البراهين العقلية القاطعة التى تثبت لكل عاقل ومفكر ان الله موجود وحيّ اود ان نلقى معا بنظرة عابرة إلى الحياة التى نحياها وإلى الوجود الذى نعيش فيه .

❋ ❋ ❋

المبحث الثانى

نظرة إلى الحيـــاة

هيا إذاً نلقى نظرة عابرة على هذا العالم ، على هذه الكرة الأرضية التى مازالت حتى كتابة هذه السطور ، تدور وتدور ونحن معها ندور حول شمس قد توهجت وأشرقت وأضاءت ومن حولنا يشرق البدر وضاءا جميلا .

وأود أن تكون نظرتنا الأولى إلى المعتقدات ، أو إلى الأيديولوجية المصيرية كما أسميها وكما أود أن يسميها النـاس جميعا ، ذلك أن كثيرا من الناس يأخذون الدين مأخذ الهزل ، ويعتبرونه عبارات تردد ، وطقوس تكرر وتعاد ، ثم لاشىء بعد ذلك . أما لو أخذ كل إنسان فى اعتباره أن العقيدة أو الدين هو الشىء الذى سيتوقف عليه مصيره ، ومستقبله الحقيقى ، فأنه حينئذ سيفضل أن يموت ألف مرة ، قبل أن يخل بعقيدته التى آمن بها أو يعبث بأحكامها .

وإذا كانت هناك حكمة تقول (لابد مما ليس منه بد) فأننى أيضا أقول لابد لذلك الذى يؤمن بوجود الله القوى القادر الذى خلقنا ويرجعنا إليه أيمانا حقيقيا معتقدا بحق أن مستقبله الحقيقى متوقف على سعيه لأرضاء الله ، لابد له أن يبذل كل جهد ممكن للحصول على رضاء الله ، وكل طاقة يملكها فى تجنب غضبه أو سخطه .

ذلك لأنه يعتقد ويؤمن أن فى التزامه بطاعة الله أمان لمستقبله الحقيقى ،

الذى يحرص كل الحرص على أمانه .. مستشعراً فى ذلك أنه إنما يرجو الخير لنفسه قبل أى اعتبار آخر .

وإذا مانظرنا إلى الأيديولوجية المصرية فى عالمنا هذا فأن صورتين متناقضتين تتراءيان لنا فى غير مالبس أو غموض : الصورة الأولى صورة جموع بشرية يؤمن كل فرد منهم أن ليس هناك إله خالق وأن الدين وسيلة الضعفاء وعزاؤهم وأنه إنما أتى إلى العالم بالصدفة البحتة .. وأنه سيعيش فيه بقدر مايستطيع . فاذا أنتصرت عليه عوامل الفناء فأنه سيموت .. تماما كما تتوقف الآلة عن العمل حينما تنتصر عليها عوامل التعرية .

وإذا كانت الصورة تبدو أكثر وضوحا بعد أضافة بعض الرتوش فأنى أذكر :

- فى المقام الأول : هناك وبالعجب إناس فى العالم مايزالون يربطون ايديولوجيتهم المصيرية بالاصنام والاوثان ويعتقدون أنها هى التى خلقتهم وإليها سيرجعون ، وهؤلاء لن اتعرض لهم فى كتابى هذا ، أنهم أحقر شأنا من ان يضمهم كتابى بين دفتيه .

غير أننى اكتفى بالقول بأن هذه الوثنية قد لطخت جبين الانسانية بالعار زمانا طويلا . إذ أن العقل لايقبل على الاطلاق أن يعبد الحى ميتا أو يعبد الانسان حجرا . . كما أن القلب والوجدان والضمير الانسانى ، وكل مايرجع إليه الانسان فى سلوكه من قيم أو مثل عليا ، لايمكن أن ترضى من الانسان وهو يحنى هامته لحجر أصم معتقدا أنه بذلك يكون آمنا فى حاضره ومستقبله

وهناك من الناس يعبد الشجر أو يعبد الأنهار الجارية أو يعبد النيران والبقر أو يعبد الشمس والقمر ، وكل ذلك ضروب من الوثنية لا أجد الحديث عنها إلا ضربا من الجدل العقيم ، بعد أن أدرك الانسان بعقله أن مصيره ومستقبله الحقيقى شىء آمن من أن يضيعه راضيا مختارا . ومهما كانت ومهما تكون الأسباب والمبررات .

- فى المقام الثانى اذكر أن أولئك الذين لا يؤمنون بوجود الله يتوزعون فيما بينهم إلى ثلاثة مذاهب .

أولا : المذهب الشيوعى ويتركز بوضوح فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى وفى معسكر الدول الشيوعية كما أن هذا المذهب الشيوعى ينتشر بدرجات مختلفة فى كثير من دول العالم ، ولن أتحدث عن الشيوعية كنظام اقتصادى فان ذلك متروك فى تقديرى لرجال المال والاقتصاد لكننى سأتناول الشيوعية فى كتابى هذا من وجهها الدينى كنظام يقوم على اللادين وعلى الكفر بوجود الله وعلى اعتبار أن الدين أفيون الشعوب .

وأود أن أبين للانسانية جمعاء أن هذ كله محض افتراء وتضليل وأن أولئك الذين دفعهم السخط على المجتمع الرأسمالى إلى الكفر بالاديان وإلى الكفر بوجود الله قد أسرفوا على أنفسهم وعبثوا بمقدراتهم وبمستقبلهم الحقيقى من أجل الحاضر وسعادة الحاضر ففقدوا بذلك الامن الحقيقى للحاضر والمستقبل .

واود أن أقول تكراراً ان حياتنا على الأرض حاضر أو حاضر متقدم نسميه نحن جوازاً بالمستقبل ، أما مستقبلنا الحقيقى الذى يجب أن نحرص كل الحرص عليه فهو المصير بعد الموت ، ذلك المصير الذى يجب أن نفكر ونمعن الفكر فى أمنه وسلامته .

أما بالنسبة لاولئك الذين يقولون بانتهاء الحياة بالموت وأن الموت نهاية لكل أنواع الحياه وانه ليس هنك أى نوع من أنواع الحياة بعد الموت ، فأننى أطلب منهم أن يكون التفكير فى مصير ما بعد الموت تفكيراً أكثر جدية ، إذ أن المصير شيء يعبر عن كينونة الانسان فى زمن ، ولايفترض مقدماً كونه حيا أو ميتا ولكنه يبحث فى هذه الكينونه ويقررها ، ثم يبحث فى الوسيلة الأحسن لمواجهتها .

ثانيا : المذهب الوجودى الملحد وهو قليل الانتشار فى هذا العالم ولكنه شديد الخطر عليه إنه وبدون مبالغة أخطر على العالم من الذباب ، وأشد فتكا بالفكر العالمى المستنير من الطاعون .

ولقد حاولت مرة ومرات أن افهم شيئاً عن الايديولوجيه المصيرية لهؤلاء القوم ، وخصوصا أنهم اتخذوا لهم عاصمة هى باريس ، وملكا هو جان بول سارتر ، وملكة هى سيمون دى بوفوار .

وقرأت كثيراً عن الملك والملكة كما قرأت لهما كثيرا ، وكل ما خرجت به من قراءاتى أن الملكة وكذلك الملك ورعيته لا يؤمنون بوجود الله ، ومع ذلك وبرغمه يؤمنون بالقيم وبالمثل الانسانية .

ولقد لاحظت فى عقيدتهم شيئا عجيبا ، ذلك بانهم يؤمنون بأن الانسان مسئول عن نفسه فحسب أمام ضميره مسئولية مطلقة ، ولقد يعجبك هذا الكلام ، ولكن ، لأى غاية يسعى الانسان ، وأى شيء يمكن أن يكون هدفا له ، هنالك لا تسمع منهم إلا كلمات جافة جوفاء لا تحمل معنى ..

كما أن آثار الحيرة والاضطراب تبدو واضحة فى كل كلمة تلقى بها أفواههم

وقصارى ما يفخرون به أنهم ينشدون الكمال ، وأنهم لا يرضون عن أنفسهم ، وأن قرموطا من السمك المتوحش يطاردهم على الدوام فى نومهم وفى يقظتهم .

ولا أريد أن أطيل فى وصف هذا المذهب ولا فى وصف القائمين عليه ولكننى أرجو ألا تنخدع البشريه بالسراب و بالزيف وبالألوان البراقة الذى يثيرها المضللون والمزيفون حول المثل والقيم والخط المثالى السلوكى ، فان اتباع الخط المثالى السلوكى فى الأخلاق الانسانية شىء ، والبحث عن المستقبل الحقيقى للانسان شىء آخر والخلط بينهما جريمة كبرى فى حق الانسان وفى حق مصيره ومستقبله الحقيقى . ولقد يبلغ بنا الانفعال ذروة الغضب حينما نتذكر كل هذا العبث بالقيم الانسانية ، وكل هذه المغالطات للفكر الانسانى ، كأنما يريد أولئك العابثون أن يطفئوا نور الحق فى العالم ويوقدوا مكانه للباطل نارا ونيرانا وكأنما يريدون أن يضعوا أمام كل عين منظارا أسودا يحجب عن العيون نور الحقيقة ويظهر لها أشباح الباطل .

ولقد أحاول بكل جهد أملكه وبكل طاقة أستطيع بذلها أن أظهر لاخوتى من بنى البشر أن لكل منهم فى هذه الحياة ، وفوق كوكب الأرض السيار خمسة إيديولوجيات [1] ، تؤثر كل منها فى الأخرى وتتأثر بها لكنه يجب أن ينظر إلى كل منها على حدة وبدون إهمال .

أولا : الأيديولوجيه المصيرية : وهى التى يبحث الانسان بموجبها عن مستقبله ويفكر فيه وهى التى تميز الانسان كما أسلفنا عن الأرانب والثعالب والفئران وبنات آوى .

(١) الايديولوجية كلمة مركبة من مقطعين ايديا ، يولوجى ومعناها علم ، فكرة وأقصد بها الخط التفكيرى العام أو أساس التفكير .

ثانيا : الايديولوجية العلمية : وهى التى يسعى الانسان بموجبها إلى اكتساب العلم والمعرفة عن كل ما يحيط به ، وكذلك إلى محاولة الابتكار والاختراع فى أى مجال وبأى وسيلة .

ثالثا : الايديولوجية الصحية : وهى التى يسعى الانسان بموجبها إلى الحفاظ على حياته على الأرض إلى أبعد زمن ممكن ، أعنى تلك الايديولوجية التى بموجبها يحاول أن يقوى بنيانه إلى أقصى حد ممكن وأن يجنب نفسه إلى أسباب الفناء بكل ما يستطيع .

رابعا : الايديولوجية الاقتصاديه : وهى التى يحاول الانسان بموجبها أن يحسن مستوى معيشته وأحواله المادية بكل جهد ممكن وبالوسائل التى يراها شريفة وملائمة .

خامسا : الأيديولوجية العاطفية : وهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : العاطفة الأخلاقية . وهى التى يسعى الانسان بموجبها إلى التزام خط مثالى ، أخلاقيا أو إلى التمسك بقيم أخلاقية معينة كالكرم ، والحلم والعفو عند المقدرة وهلم جرا .

القسم الثانى : العاطفة الاجتماعية : وهى التى يسعى الانسان بموجبها إلى تكوين وبناء علاقات اجتماعية سليمة ، وإلى تأسيس وتكوين رابطة مناسبة بينه وبين المجتمع الذى يعيش فيه .

القسم الثالث : العاطفة الجنسية : وهى التى يسعى الانسان بموجبها إلى إشباع حاجاته الجنسية بالوسيلة التى يراها مناسبة .

وهذه الأيديولوجيات الخمس مترابطة ومتصلة ببعضها اتصالا شديدا بحيث لا يمكن بأى حال أن نفصل إحداها عن الأخرى . غير أنها فى

اتصالها تبقى متميزة واضحة المعالم ، ولكن ما أريده أن يكون واضحا للبشرية جمعاء .

أن المذهب الشيوعي يخلط بين الايديولوجية الاقتصادية وبين الايديولوجية المصيرية بصورة خادعة ومثيرة ، أنهم يستغلون كل ما في النفس البشرية من حب التغيير ، وكل ما في نفس الانسان من عوامل السخط والتبرم ، ثم بعدها يزعمون أن الدين هو الذي يعوق وصول الانسان إلى أهدافه وأمانيه ، أنهم يستغلون حب الفقير للمال ثم يعلنون له أن الدين هو الذي جعله يصمت ولا يطالب لنفسه بحياة الأغنياء المترفين ثم هم يستغلون ما في النفس البشرية من أحقاد وأطماع ، ويستثيرون شهوة القتل في نفس الانسان ، فيندفع متعطشاً إلى الدماء ؟ الحمراء ، ثم ما يلبث أن يعود من مشهد الدماء المراقة وقد رفع أنفه ، وأحمرت عيناه فلا يرى ولا يسمع إلا مرأى المادة وصوت رنينها ، ويعيش كما تعيش الآلة على حد زعمه ويموت أيضا مثلما تبلى :

ولقد آليت على نفسي ألا أقحم هـــذا الكتاب في الجانب الاقتصادي الشيوعية فذلك ما يستطيع رجال الاقتصاد أن يناقشوه بموضوعية ، ولكن على الانسانيه جمعاء أن تدرك أن الشيوعية حتى ولو كانت تحقق لهم سعادة الحاضر فانها لا تحقق أمن المستقبل الحقيقي ، وأنه لا يمكن ، بحال من الأحوال أن نبذل أمن المستقبل ونشتري بها سعادة الحاضر ولكن العكس هو الصحيح وهو أن من الممكن أن نبذل سعادة الحاضر في سبيل أمن المستقبل والشيء الأمثل هو أن نحافظ عليها معا . على سعادة الحاضر وأمن المستقبل .

ولقد كانت الشيوعية وما تزال راية للباطل تخفق على ربوع الأرض وباء خطيرا راح يهدد البشرية بسرطان قاتل ومميت .

كذلك فان المذهب الوجودى الملحد يخلط بين الأيدلوجية المصيرية و بين الأيدلوجية العاطفية خلطا يثير الحيرة والشك والقلق و يبدد الطاقات الانسانية فى غير ما قصد جاد لتحقيق الحقيقة أو ادراكها .

ونكرر هنا لنؤكد ماذكرناه آنفا من أن الانسان يجب أن يرفض بحسم فكرة « الفكرة السائدة أو الايديو لوجية الواحده » أوما أطلق عليه وحدانية النظرة ، بمعنى أن أى ايديولوجية اقتصادية كانت أو عاطفية معينة يجب ألا تصادر كل الخطوط الفكرية الأساسية للانسان ، مدعية بغير مبرر أن هذه الايديو لوجية هى الأهم فى الحياة ، وهى التى تستحق فى رأيهم أحتكار الفكر الانسانى ، و بذلك نجد لزاما على الانسان ان يفكر فى كل ايديولوجية فى حياته تفكيراً جادا ، والا يلغيها أو يقلل منها بدافع الاهتمام بايديو لوجية أخرى فى هذه الحياة .

ثالثا : المذهب اللامنطقى الملحد : وهو يجمع أشتاتا من البشر تتجسد منهم بلية العالم كله أو يتجسد فى أشخاصهم اللامعقول فى كل العالم الحى ذلك أنهم لا يعتمدون على منطق أو حجة أو برهان بقدر ما يعتمدون على العناد واللجاج والمراوغة ، و إذا ما حاولنا أن ننبه أحدهم إلى أنه إنما يعبث بمستقبله الحقيقى أسرع يقيم التحصنات والخطوط الدفاعية وأخذ يكر ويفر و يردد الجمل والعبارات ، بطريقة تثير السخرية والأسف والأسى والغضب معا .

وهؤلاء لن أتعرض لهم فى كتابى هذا ، فهم قريبى الشبه بالوثنيين إلى حد بعيد ويكفى أن أعرض نماذج لهم فى مقامى هذا .

النموذج الأول : المذهب اللامنطقى الكسول وهؤلاء أناس شعارهم

أنا لا أؤمن بشيء إلا إذا رأيتـــه بعيني وما دمت لم أر الله بعيني فانى لن أعبده وإذا قلت ألا يكفى أن تراه بعين العقل وبعين القلب يقول لك لا ومهما أتيته من بعد ذلك من حـــديث فانه لن يتغير رغم أننا نؤمن فى هذه الحياة بوجود ما نلمس أثره .

النموذج الثانى : المذهب اللامنطقى العلمى الملحد وهؤلاء يتمسحون بالعلم ويزعمون أنه يتعارض مع وجود الله وبما أنهم يؤمنون بالعلم إذن فهم يكفرون بوجود الله . وقضية تعارض العـلم مع وجود الله قضـية مفتعلة سأتعرض لها بالتفصيل فيما بعد أما قضية أدعياء العلم فهى قضية غير منطقيه يبدو فيها الخلط واضحا بين الايديولوجية العلمية وبين الايديولوجية المصيريه .

النموذج الثـالث : المذهب اللامنطقى المقلد = وهولاء أناس فتنوا برجال ملحدين وأعجبوا بهم ، فراحوا يقلدونهم تقليدا أعمى دون ما منطق أو فـكر . تماما كما يقلد الببغاء أصوات من حوله .

أما الصورة الثانية : فهى صورة تلك الجموع البشرية المؤمنة التى تؤمن بوجود الله الواحد الأحـد وترجو رضاه وتعتقد أنه هو الذى خلقها ، وهو الذى سيجمعهم ويحاسبهم على أعمالهم .

ولقد ترى الرجل منهم يخير بين الـكفر بالله وبين أن يلقى لأسد جائع أو وحش مفترس ، فلا يرتد عن الايمان قيد أنمله ويستطيع كل إنسان أن يتصفح التاريخ ليطالع فيـــه نماذج أو أمثلة لأولئك الذين ضحوا بأرواحهم وأنفسهم من أجل كلمة التوحيد والايمان وماتوا وهم يرددونها رغم إننا لا نعلم ألمـا يفوق ألم الموت أو يدانيه .

وإن الانسان مهما وصف وأطال الوصف فلن يستطيع أن يصف ذلك المؤمن الذى صلبه الـكفار ، ووقف فريق منهم بالنبال لينهالوا بها عليه ، وهو

يعلم تماما أن كلمة من فمه بنبذ إيمانه تنجيه من الموت . ولكنه يأبى ذلك قائلا :

و لست أبالى حين أقتل مؤمنا . . . على أى جنب كان فى الله مصرعى

وقصارى ما أستطيع قوله فى المؤمن هو أن عقله قد أدرك أن مستقبله الحقيقى أهم من الحياة الدنيا التى سيغادرها إن آجلا أو عاجلا . مهما طال الزمن ومهما تلكأت مسيرة الأيام .

بعد هذه النظرة العابرة إلى جانب المعتقدات أو إلى جانب الايديولوجية المصيرية فى كوكبنا السيار . أتذكر وأذكر أننى كنت أركب القطار و مسافرا من بلدى ومرتحلا فى سبيل اكتساب مزيد من العلم والمعرفة . . و بينما كنت أسرح ببصرى متأملا فى الأرض من حولى وقد تدثرت بردائها الأخضر الجميل و يزيده جمالا و رونقا وحسنا و بهاءاً طيور صغيرة راحت تحلق فوقه . . و تترنم فكأنما تصف ما تراه عيناها من الجمال والروعة .. بينما كنت كذلك شق سمعى أصوات استغاثة وعويل و إذ بالنيران تشب لسبب لا أعرفه فى إحدى عربات القطار . . وبالرغم من أن النيران قد أخمدت دون ما ضرر . . إلا أن سؤالا راح يلح على عقلى . . أليس من المحتمل . . . أن تشب النيران مرة أخرى . . . وتلتهمنا جميعا وتنتهى حياتى على أعنف ما يمكن أن أتخيل . ثم . . . أليس من المحتمل أن ينقلب بنا القطار . . . ونموت ونختفى من هذه الحياة ومن كل ضجيجها .

ووقر فى نفسى أن الحياة هينة ورخيصة وليست بذات قيمة ... وسريعا ما ابتلع هدوء الجو وشاعريته هذا السؤال وثابت نفسى إلى الهدوء والسعادة .. لكن مسيرة الأيام ما لبثت أن أثارت هذا السؤال فى نفسى مرة أخرى ؟؟؟

وكانت فى هذه المرة عنيفة كأقصى ما يكون العنف وبشكل يصعب على الخيال أن يحتويه ... وإليك ما حدث .

كان الوقت ليلا ... والليل فى قريتى هادىء وجميل ... ولكن هدوء الليل تمزق ... فقد دوت فى الجو ثلاث طلقات نارية ... اخترقت صدر رجل ما كان يدور فى خلده أنه سيموت عما قريب ورأيته وهو ملقى على الأرض صريعا ... كانت عيناه جاحظتان ومائلتان إلى أسفل ... وكان بريقهما قد انطفأ ... وكان لعابه قد سال وهو يغالب سكرات الموت حتى رسم خطا على ذقنه ... ويا له من خط .

ورنوت ببصرى إلى السماء فراعنى مرآها ... وعاد السؤال المرعب يلح مرة أخرى : هل الحياة هينة ورخيصة وليست لها قيمة .. وأجبت نفسى حينئذ فى قوة : نعم أنها أحقر وأتفه من جناح بعوضة وصاحت نفسى حينئذ هل كل من فى العالم يدركون ذلك ... وكان أن أبلغ منى اليأس مداه ... وصحت وصاحت بى دموعى من الأسى رويدك نفسى لا تقضى مضاجعى .

وفى العام الماضى كنت أدرس تشريح الضفدعة فى المرحلة الاعدادية بكلية الطب حينما حمل إلى أحد الأصدقاء ضفدعة حية ورجانى أن أشرحها أمامه وبدون مخدر .. وأمسكت بالضفدعة المسكينة ... كانت ترتعد فى يدى خوفا وفرقا .. كانت تنظر إلى نظرة توسل واستعطاف ورأيت نفسى أقول لها : يا ضفدعتى العزيزة ... لا تبكى ... ولا تحزنى على الحياه .. فان تحتوى منها خيرا .. واعلمى أن الموت نهاية كل حياة ... فلتذهبى وإنا بك لاحقون وفى مطلع هذا العام كنت أدخل المشرحة مع زملائى

حيث طالعتنا الجثث الآدمية بمنظر يثير كل ما فى الوجدان الانسانى من إحساسات الأسى والحزن فها هو الانسان الذى كان فى حياته يضحك ويمرح ويشمخ ويشمخر بأنفه قد أضحى جيفة متعفنة ، وهذا هو الانسان الذى هو أنا ، والذى هو أنت ، والذى كثيراً ما يقف أمام المرآة ، معجباً ببريق عينيه وبشكله الانسانى البديع ، وقد أضحى الناظر إليه يملأ تقززاً ، ويحس بالغصة تقف فى حلقه وبالحزن والاسى يملك عليه مشاعره .

ويعود السؤال الحائر أمامنا إلى الظهور مرة أخرى ، وهو هل تدرك البشرية إن حياتها على الأرض حقيرة وتافهة فى حد ذاتها وإذا كانت البشرية تدرك ذلك فهل شعت سعيها وجدت فى السعى من أجل مستقبل أمن ومستقر وذو قيمة يعوضها عن تفاهة الحاضر وآلامه ومصاعبه .

إن النظرة التى ألقيناها على الجانب العقائدى من حياة الانسان على الأرض تحوى إجابة مفصلة على سؤالنا هذا .

وأود أن تكون نظرتنا الثانية إلى النفس البشرية وما ينازعها من عوامل الخير والشر .

وهل للايمان بالله واليوم الآخر قيمة إيجابية فى نهضة النفس البشرية وفى دفعها نحو فعل الخير وأبعادها عن الافعال الشريرة ، وهناك سؤال تقليدى يردده أولئك الذين يهتمون بتأمين الناس على أموالهم وأرواحهم هو : ما هو الرادع الطبيعى عن فعل الشر .

ولقد يكون الرد التقليدى على هذا السؤال : العقاب والمثوبة فعقاب من يفعل الشر ، ومكافأة من يفعل الخير هو خير رادع عن فعل الشر وخير دافع إلى فعل الخير ، ولذلك أخذ رجال القانون فى كل دولة يضعون العقوبات

المختلفة التى تردع الناس عن الشر ، ومن ثم يأمن الناس على أموالهم وأنفسهم غير أن هناك شيء غاية فى الاهمية هو أن القوانين بكل ما تحويه من دوافع و مرغبات أشياء خارجية تشمل ظواهر الاحوال ومظاهر فقط ، إذ قد يحكم المنفذون للقانون على البرىء بالعقاب ، وقد يحكم للمذنب بالبراءة ، وفى واقع الامر ما انفكت العصابات الشريرة تهرب من القانون وتتحايل عليه حتى لقد أصبحت الانسانية تدرك جيدا أنه لابد للانسان من دافع داخلى ينبع من ذاته ويدفعه عن فعل الشر إلى فعل الخير .

(وقد يقول قائل : وهل هناك فى النفسية البشرية ميل غريزى إلى فعل الشر) :

وجوابنا على ذلك أن الميول العدوانية فى الانسان قد تتكون وتنمو نتيجة لتكرار الخبرة المؤلمة عند ذلك الانسان ، وقد تتحول إلى عقدة العدوان ضد مجتمعه الذى يعيش فيه أو ضد المجتمع الانسانى بأسره ، ويتعين تبعاً لذلك أن يكون فى المجتمع الانسانى من الدوافع والمرغبات مايحمى به نفسه من المحترفين من أفراده وأيضا أن يكون فى كل نفس بشرية ما يمكن ان نسميه بالخطوط الدفاعية ضد دواعى انحرافها إلى العدوان .

وفى ما أسلفنا من القول تتجلى حاجة الانسان كفرد إلى الايمان بالله سبحانه وتعالى ، إذ انه بذلك يستطيع ان يحطم دواعى الانحراف فى ذاته باطمئنان إلى المستقبل على امتداده وتمسكه بكل حقوقه المشروعة فى حاضره ، وباستهانته بالقيم الزائلة للحياة واستعداده الدائم للتضحية بها إذا ما كان فى ذلك ما ينقذ الانسانية بأسرها من اخطار محدقة ، وفى ذلك نفسه تتجلى حاجة المجتمع ككل إلى الايمان المطمئن بالله والحرص على اتباع رسالة السماء .

و إذا فهناك الدليل القاطع على ان الميل الغريزى إلى فعل الشر موجود فى ذاتية الإنسان ، وعلى ان الانسانية فى مسيس الحاجة إلى رادع عن الشر

ودافع إلى الخير ينبع من ذاتية الانسان . ويتجاوب مع تلك الروادع والمرغبات التى تضعها القوانين وتنظمها .

ومن الحقائق البسيطة التى لا تحتاج إلى كثير من الجدل اعتقاد الانسان فى وجود حياة أخرى سيحاسب فيها على عمله وعلى بواعث أعماله ومقاصده منها أمام الله سبحانه وتعالى هو خير رادع عن الشر وخير مرغب فى الخير . ومن ثم كانت حاجة البشرية ماسة وشديدة فى الايمان بوجود الله سبحانه وتعالى ومن ثم كان الحرص على ذلك الايمان ضرورة يدعو إليها كل حريص على البشرية مهتم بأمنها وسلامها غيور على مستقبلها الحقيقى وإذا ما ذكرنا الدوافع إلى الخير وإلى الأعمال النبيلة فانى أذكر أيضاً أن الايمان بالله واليوم الآخر أصل لكل فضيلة ولكل عمل خير .

وذلك الرجل المؤمن الذى يعلم تماماً فى قلبه أن حياته لا تمثل إلا حاضراً أو حاضراً متقدماً ، وأن مستقبله الحقيقى هو بحسب ما يقدم من عمل خير لاشك أنه سيندفع فى طريق الخير لا يلوى على شىء .

ذلك أن الايمان بالله واليوم الآخر يستلزم أن يعتبر الانسان نفسه على هذه الحياة . . . تماماً كذلك الذى يجلس فى لجنة امتحان . . . والممتحن هو الله سبحانه وتعالى . . ومادة الامتحان هى كل قدرات الانسان ... وكيفية تصرفه فيها طبقاً للصالح الانسانى أو ضد مصالحه وأهدافه ..

ومن ثم فليس غريباً أن يكرس ذلك الذى يؤمن بالله كل ما يستطيع لنفع المجتمع الانسانى . وليس غريباً أن يضحى بحياته فى سبيل محو الشر والأشرار عن ذلك المجتمع . . . وفى سبيل صون ذلك المجتمع وحمايته من كل ما ضرر يتهدده ولكن الغريب حقاً والذى بلغ من الغرابة أقصاها هو أن يضحى

إنسان بحياته وهو يعلم أن لا حياة له سواها . . . إذن أن مما يعتبره الانسان بديهة أن الـكل أكبر من جزئه فمثلا عدد طلبة جامعة أسيوط يزيد عن عدد طلبة كلية الطب بجامعة أسيوط . . وإذا كان الامر كذلك فانني أستطيع أن افترض أن ذلك الانسان الذي يعتقد أن له حياة واحدة وأنه لاحياة لها له سواها لن تكون غايتـه من حياته إلا أن يعيشها بكل دقيقة فيها وفي سعادة واسعة وهناء فاذا ما حصل على تلك السعادة فانه لن يضحي بحياته من أجل مزيد منها أو من أجل مبدأ نبيل وإلا فانه يكون مضحياً بالـكل من أجل الجزء ... وهذا ما لا يستقيم مع طبائع الامور .

وأود أن أذكر أن طبائع الأمور تدرك في الانسان حبه لنفسه وسعيه الدائم المستمر نحو كل ما يقدم له نفعاً .. أو يدفع عنه ضرراً ومن ثم فال الذي يستقيم مع طبائع الأمور أن يحافظ الانسان على حياته ويستميت في المحافظة عليها ، وإذا ما كان الانسان يؤمن أنه لا حياة إلا حياته الدنيا وأنه يعيش إلى أقصى وقت ممـكن ثم تنتهي حياته وكأنه شيء لم يكن . . . فانه يـكون سعيداً حين يضحي كل ما حوله من طير وإنسان وحيوان ... في سبيل أن يعيش ويعيش إلى ما لا نهاية ... ولقد أعرف كثيراً من الناس يود أن يسير إلى أهدافه ولو على جثث أقرب النـاس إليه وأعزهم لديه أليس ممـا يستقيم مع طبائع الأمور أن يود الملحد لو سار إلى أمله في ألا يموت ولو على جثث الناس جميعاً ولقد أسأل الملحد عن وجود الله فينـكر أمامي وبدون ما حياء أو خجل وجود الله القوي القادر ... وأسأله حينئذ عن وجود الحياة الأخرى وينـكرها أمامي ويعلن بكل ما أوتي من قوة أن الموت نهاية الحياة ولا حياة بعد الموت ... وأننا تماماً مثل ما كينة من الحديد تعمل حتى تبلى . . . وحينئذ أسأله قائلا :

واذا فلأى هدف تعيش على هذه الحياة أو ماذا تريد من الحياة وأنت تعلم أن ألم الموت و مرارته تجب وتمحى كل لذة كانت قبلها بل كل ماشعور بالسعادة و السرور عاشه الانسان فى حياته ... وانت تعلم ان كل لحظة سرورك سيكون ختام لها الموت بمرارته التى تدانيها مرارة .

وهناك ايضا الخوف والترقب والقلق من المجهول فى حياتك الدنيا فها هى الارض تدور حول الشمس كمحصلة لقوتين قوة جذب الشمس للارض وقوة الطرد المركزية ... فمن يدريك ياأخى فقد تزيد احدى القوتين على الاخرى او تزول احداهما من الوجود ... ولقد يردد العلماء بين الفينة والفينة ان الارض ستلتصق بالشمس فى يوم ما وستزول الحياة ... ولذلك فالايمان بالله ضرورة من ضرورات حياتنا نطلبها و نسعى ونجـــد فى طلبها .. بكل ما نملك من قوة .

حتى نحظى بالحياة السعيدة المطمئنة وبالمستقبل الآمن المشرق . واذا فالايمان بالله سبحانه وتعالى خير رادع للانسان عن فعل الشر وخير دافع له الى فعل الخير .. والايمان بالله جل وعلا هو من احسن الدعائم التى يمـــكن ان يقوم عليها امن الناس على اموالهم وانفسهم وكذلك فهو ضرورى للانسان حتى تنمحى من حياته عوامل الخوف والترقب والقلق من المجهول .

و يحل بدلا منها امن وامل يحققان للانسانية اعز واغلى ماتطمح اليه . كل ذلك يبين قيمة الايمان فى الحياة ... وما دام انسان يطلب هـذا الايمان ـ كضرورة من ضرورات حياته وامن حاضره فان من واجبه ان يبحث عنه بعقله .

وانى لعلى ثقة ان من يبذل الفكر مخلصا . . فى سبيل البحث عن الايمان بالله واليوم الاخر ... سيجده قريبا وبدون عناء .

والآن ساذكر لكم البراهين العقلية القاطعة التى تدل على وجود الله الواحد الاحد ... حتى تقر بذلك عيون وتطمئن قلوب وحتى تزول غيوم الباطل عن شمس الحقيقة فيعود لها بهاؤها وروتقها ويسود العالم امنه وسلامه .

●●●●●●●●●●●●●●●٤٠●●●●●●●●●●

المبحث الثالث

الوجود كدليل عقلي قاطع على وجود الله

الوجود ، وأعنى به كل ما هو موجود فى هذه الحياة وفى هذا الكون اللانهائى ، من شمس وقمر ونجوم وكواكب ، ومن أنهار وأشجار و بحار ، ومن مواد غازية وسائلة وصلبة ومن ممالك حيوانية ونباتية .

فهذا الالكترون الحائر الذى يدور حول ذرة أو ينتقل إلى ذرة أخرى ليربطها بذرته ، إنه مادة ، أو هو وحدة المادة التى تكون الوجود والذى نعنيه ونقصده .

وهذه الذرة من ذرات الاكسوجين التى تنتقل فى دمى ودمك وتمنحنى وتمنحك الحياة هو أيضاً مادة ، وهى أيضاً من الوجود ، وهذه القطرة من الماء التى تتحرك فى قاع محيط أو على عمق قليل منه أو فى عنان الجو هى من المادة وهى من الوجود الذى نتحدث عنه وقطرة الدموع الحائرة التى تنزل من عين عاشق ولهان متدحرجة على خده مادة . . . وهى أيضاً من مكونات الوجود .

وهذا العصفور المغرد الحى الذى يطير متنقلا من غصن إلى غصن ، مادة ، وهو من الوجود الذى أعنيه .

وعلى الجملة فانى أعنى بذلك الوجود كله بكل مكوناته و بكل صفاته و بكل مواده وطاقاته ، و بعد أن تأملنا هذا الوجود بكل مكوناته والتى قد تبلغ من الضخامة حداً لا يمكن تخيله ، أو قد تبلغ من الضآلة والصغر حداً بعيداً وساحقاً ، أليس من المعقول أن نطرح على بساط هذا السؤال :

من أوجد كل هذا الوجود ؟ .

ومن أوجد كل هذه الموجودات ؟ ...

و فى رأيى أن هـذا السؤال معقول جداً . . . بل إنه سؤال تفرضه علينا إنسانيتنا واعتزازنا بهذه الانسانية وأن إهمال هـذا السؤال و تغافله لهو من التهاون بمكان ... بالعقل البشرى وبالقدرات الانسانية .

و إذا كان ماركس مؤسس المذهب الشيوعى الملحد يقول : الانسان يتواجد أولا . . ثم يحدد ماهيته بعد ذلك . . بمعنى أن الانسان يأتى الى الحياة كالحيوان يـكتشف ذاته بينما لا يـكتشف الحيوان ذاته . فانى أقول ياسيد ماركس اذا كنت قد اكتشفت ذاتك . . ومقدراتك على الحياة .. واكتشفت أن لك العقل الذى تفـكر به وتمعن ما حولك واكتشفت أن حولك مواد حية ومواداً ميتة .. مواد سائلة وصلبة ومواد غازية ... ألم يمر فى تفـكيرك هذا السؤال وهو كيف تـكونت هذه المواد ... ومن جاء بها الى الوجود .. ياسيد ماركس ... أليس من اكتشاف ذاتك على الأرض أن تفكر فيمن أوجد مادة جسمك والمواد التى تحيط بك على الأرض وهل ينبغى أو يليق بنا أن نغفل أو نهمل بحثنا فى مستقبلنا الحقيقى تحت شعار تخليص الفقراء أو العمال من ذلك الظلم الحيق الذى قد يكون واقعاً عليهم من أصحاب الأعمال أو من الأغنياء .

وهل هؤلاء الفقراء الذين يدعى السيد ماركس أنه يهمل البحث فى الايديولوجية المصيرية بسببهم .ولأجلهم يعلن حـكة الغيابى على كل الأديان السماوية بأنها أفيون الشعوب . . هل هؤلاء الفقراء يقبلون عقلانيا التخلى عن المستقبل الزمنى العريض بامتداده اللانهائى من اجل بضعة اعوام قد تكون سعيدة . . وقد لا تـكون . . يقضونها فى هذه الحياه . . وهم مجردين من كل دلالات الأمن والأمل فى هذا الزمان الذى تأتى مسيرته ومباشره بعد تلك النقطة الزمنية التى تنتهى عندها حياتهم كأفراد أو كجماعات .

وانا أفهم واعتقد أن طبقة العمال فى بعض البلاد الرأسمالية قد تتحمل كثيراً من أعباء المجتمع الصناعى الرأسمالى دون فوائده وهذا ظلم بين قد تكون الوسيلة الوحيدة لدفعه اشعال نار الثورة ضد المجتمع الصناعى الرأسمالى وتحويله الى مجتمع اشتراكى توزع فيه الأرباح والدخول على أسس عادلة .

غير أن الشيوعية التى ينادى بها السيد ماركس والتى تعرف بالمادية الماركسية أو المادية الجدلية تنادى أيضاً برد حركة العقل الى المادة وبان تلغى الذاتية برد العالم ومن ضمنه الانسان إلى نظام يتكون من اشياء ترتبط ببعضها البعض براوبط كونية . ومعنى ذلك أن السيد ماركس ومن ينادى بارائه من الماديين الجدليين والشيوعيين يستنكرون على الانسان أن يعتز بذاته الانسانية وأن يبحث عن حاضر سعيد ومستقبل مشرق يحقق فيه هذه الذات ويدفع فيه عنها كل ضرر وعلى ذلك فانى أرجو أن أبين البشرية جماء هذه السخافات التى تقال عن ذاتيتهم البشرية ، كما أرجو أن أفند أمام البشر مزاعم وضلالات المادية الجدلية ، وكذلك مزاعم وضلالات الوجودية السارترية ، غير أننى سأقصر حديثى فى هذا الكتاب على مخاطبة أولئك الذين يعتزون بانسانيتهم وبذاتهم الانسانية المفكرة .

وإذا رجعنا إلى السؤال المنطقى الذى وضعناه نصب أعيننا وعلى بساط البحث وهو من هو الذى أوجد المادة فى الكون الذى نعيش فيه ؟

ولقد ذكرت فى السابق من حديثى واحدة من البديهيات التى لا تحتاج إلى برهان أو إثبات ، والتى يعرفها الانسان ويؤمن بها إيماناً عقلياً قاطعاً ، وهى أن الكل أكبر من جزئه مهما كبر .

كذلك فانى أذكر بديهية أخرى يؤمن بها الانسان إيماناً شديداً وثيق

بها ثقة مطلقة وهى أن كل صنعة لها صانع ، وكل شىء موجود لا بد له ، من موجد فالمنضدة التى أكتب عليها لابد بداهة من صانع لها هو النجار .

ولقد آمنت البشرية على مرور الأزمان بتلك البديهية وتمسكت بها فى ثقة وقوة ، بأنه لا يمكن لأى شىء أن يوجد بدون موجد له .

وأريد أن أخاطب العقل الانسانى الرشيد : هل هناك شىء يوجد بدون موجد له ، ولن نجد فى الحياه شيئاً يوجد بدون موجد مهما عددنا الأشياء وأطلنا عددها .

ولقد أطلت فى عرض هذه البديهية بصورة أخشى أن تكون مملة وما ذلك إلا لأننى كنت يوماً أناقش واحداً من الذين ينكرون وجود الله ومن ذلك النوع الذى أطلقت عليه المذهب اللامنطقى الملحد وكنت أقول له : ألا تعتقد أنه لابد لكل صنعة من صانع ، فيرد على بكل برود ، لا ، لا أعتقد ، فربما كانت هناك صنعة بدون صانع ، وحينما أقول له إن العلم والعلماء ينادون بأن المادة لا تفنى ولا تخلق من عدم ، وبأن الطاقة لا تفنى ولا تخلق من عدم ، كما إنك حينما تترك حجرتك خالية ومغلقة لمدة عام مثلا ، فانك لن تجد شيئاً ما بداخلها قد أوجد نفس من لا شىء .

وحينما أقول أن العلماء قاموا بمجهودات ضخمة ليثبتوا العالم أنه ما من شىء يحدث الا كان وراء حدوثه عامل أو عوامل حية أو ميتة أثبتوا لنا مثلا أن تعفن اللحم يحدث نتيجة لنشاط البكتريا فانه يرد ببرود قائلا : من الممكن فى يوم من الأيام أن تكتشف الانسانية مادة صنعت من غير صانع .

وبالطبع لا أستطيع ولا أريد أن أرد على إنسان يقول لى ما شأنى بهذا الوجود ولماذا يعنينى أن أبحث عن صنع هذا الوجود ؟ . . ويعتقد أن من

الصواب أن نترك هـذه القضية التي تحمل بين ثناياها قيمنا ومقدراتنا ولعل وعسى أن تتـكشف البشرية في يوم من الأيام إنها كانت على باطل وأن الشيء قد يوجد من اللاشيء .

بالطبع لا أستطيع ولا أريد أن أرد على هذا الانسان ... وهذا ما أشرت إليه آنفاً أنه الانسان اللامنطقي الجدل الملحد ... وإنما يقود حياة تافهة لا قيمة لها .

ونمضي في قضيتنا المعروضة على بساط البحث فنقول : ما انفـكت عقولنا الرشيدة تعلن لنـا ... إننا في عالم يزخر بالمـادة ويزدحم بها ... وأن الفضاء يزخر بالـكواكب والنجوم والأقمـار ... وأن الأرض التي نتخذها مسرحا لنشاطـاتنا لا تمثل في هذا الفضاء إلا حبة رمل ... وما انفـكت عقولنـا الرشيدة تعلن لنا في قوة وفي حزم أن لـكل صنعة صانع ... وأنه لا يوجد الشيء من اللاشيء ... وإذا : من هو الذي أوجد المواد كلها ... والطاقات كلها .

من هو الذي أوجد الشمس .. تلك الكتلة الضخمة التي تعادل الأرض ملايين المرات ما .. من الغازات الملتهبة المتوهجة .. التي تشع لنا الحرارة .. حتى لنضج من حرها ونحن على هذا البعد الشاسع . . وتشع لنا الضوء حتى أن العين المجردة لا تحتمل النظر المباشر إليها مدة طويلة .

من هو الذي أوجد الأرض والقمر والسحاب والمطر والرمل والشجر .

من هو الذي أوجد طاقة الضوء التي نبصر بها الأشياء .

من هو الذي أوجد طاقة الحرارة التي تسبب لنا الدفء والنشاط .

من هو الذى أوجد لنا ذلك كله وصنعه لنا .

ولا أظن هناك من ينكر وجود الشمس .

يا جان بول سارتر   هل تنكر وجود الشمس

يا سيد ماركس   هل تنكر وجود الشمس

يا مسيو جارودى   هل تنكر وجود الشمس

أجيبونى أيها السادة ، فى صراحة وبدون التواء .

أجيبونى أيها الفلاسفة ، الذين تعاليتم على الانسانية .

وأرهقتموها عسراً ، وبددتم طاقاتها ، هل تنكرون وجود الشمس

ولا أريد شرحا مفصلا للمادية الجدلية يا سيد ماركس .

ولا أريد دفاعا عنها يا مسيو جارودى .

ولا أريد أيضاً إعلانا ببطلانها يا سيد سارتر .

إنما أريد فقط أن تحدثونى عن شىء بسيط لا يحتاج إلى فلسفة ولا يحتاج إلى جدل ، من هو الذى أوجد الشمس . ؟

ولقد يقول ماركس فى كتبه ، بكل أناة وبدون خجل أن أول ما تدعوا إليه المادية هو إنكار وجود الله .

كما يقول السيد سارتر فى كتبه إننى شديد الميتافيزيقية فى رفضى لوجود الله ، ويؤيد السيد جارودى رأيهما فى رفض وجود الله .

ولكن صبراً .

حسناً أيها السادة . . وإذا . . من هو الذى أوجد الشمس تلك الكتلة

العظيمة من الغازات الملتهبة .. والتى كانت بالفعل ملتهبة منذ سنين لاتستطيعون عدها .. ولا تستطيعون لها تخيلا ..

والتى مازالت ملتهبة وستبقى كذلك إلى ماشاء الذى أوجدها .

حسناً أيها السادة .. وإذا هل وجدت الشمس بدون موجد .. وكيف .... هل يوجد الشئ من اللاشئ .. وبدون موجد وكيف هل ينتج اللاشئ من ذاته شيئا من تلقاء نفسه وكيف وهل اللاشئ يمكن أن يعطى شيئا أى شئ .

وكيف .. لقد كان الكون فراغا .. فكيف جاءت من الفراغ مادة .. وكيف جاء من اللاشئ شيء وشيء رائع وعظيم .

يامسيو سارتر .. هل يستطيع البشر أن ينتجوا من الفراغ مادة .. وبدون وسيلة يامسيو جارودى هل رأيت فى سالف حياتك مادة تنتج من اللاشئ وبدون تدخل احد .. ياسيد ماركس : هل اللاشئ وهو الفراغ المطلق ينتج الاشياء ويصنعها ، واناشد البشرية أن تتصور معنى مايريد فلاسفتنا العظام أن يقولوه .. انهم يقولون منكرا من القول كان الكون فراغا بلقما فليس هناك الكترون ولا برتون ولا أكثر من ذلك ولا أقل .. وليست هناك طاقات حرارية ولا ضوئية .. ولا غير ذلك من ضروب الطاقة .

ثم فجأة وبدون سابق انذار وجدت من الفراغ شمس ونجوم وكواكب وأد من بحار .

كيف حدث ذلك .. وبأى وسيلة حدث ؟؟ .

ولا أظن هناك من الناس عاقل أريب يصدق هذا القول .. أو يؤمن به ..

وأناشد البشرية جمعاء أن تتصور معى أن أعلم علماء العالم وأكثرهم مهارة ، قد أدخل فى حجرة مفرغة من الهواء تماما ، وخالية من كل مادة ، هل يستطيع هذا العالم أن يوجد من اللاشىء الذى حوله الكترون واحد ، وبدون استخدام أو استهلاك أى نوع من أنواع الطاقة .

وإذا كان السيد جارودى يعلن أن المادية الجدلية هى المادية التى تبدأ حركتها بانكار أية معرفة صحيحة خارج نطاق المعرفة العلمية فانى أسأل المسيو جارودى هل من العلم فى شىء أن نعتقد أن المادة توجد من لا شىء .

وإذا : فهناك شمس ليس فى قدرة السيد جارودى أن ينكر وجودها .

وهناك شمس ليس فى قدرة السيد جارودى أن ينكر حقنا فى التساؤل عمن أوجدها .

وهناك شمس ليس فى قدرة السيد جارودى أن يعلن إنها وجدت من العدم بدون موجد لها .

وإذا : من هو الذى أوجد الشمس يا سيد جارودى ؟ وفى واقع الأمر لا نجد إلا إجابة واحدة معقولة ومقبولة هى أن قوة عظمى قد أوجدت الأرض والشمس والقمر هذه القوة العظمى تتصف بالعلم والحكمة ، إذ أن الموجودات التى نراها فى الوجود تسلك مسلكا معيناً ينهض على قواعد معينة وهذه القواعد تدل على حكمة من أوجدها وحسن تدبيره ، كما أن هذه القوة العظمى قوة حية . . . إذ الجماد لا يوجد نفسه فضلا عن أنه لا يوجد شيئاً عداه .

وفى هذا المجال فانى أتذكر وأذكر إنى كنت فى بدأ حياتى أستهل خطاباتى بكتابة :

« بسم الذى أوجدنا وما كنا لنوجد دون موجد » وكنت أعنى بذلك إنه بما أنى قد وجدت نفسى على الأرض ووجدت شمساً تضيء لى ، وقمراً يعكس ضوؤها ، ونجوماً وكواكب وسماء وبحار فانى لا بد أن أعتقد أن هناك قوة أوجدت كل ذلك ، وبما أن كل ذلك قائم على نظام دقيق ومحكم فلا الشمس تصطدم بالقمر ، ولا الأرض تصطدم بالقمر ، فانى لا بد أن أعتقد أن هذه القوة عظيمة حكيمة فضلا عن أنها حية . . إذ ان الميت كما سبق ان ذكرت لايوجد نفسه . . فضلا عن أنه يوجد ما عداه وبما أن هذه القوة الحية العظيمة قد أوجدتنى ومن حولى من البشر ومن حولى من الجماد والأحياء ، فانى أقدرها لذلك وأهتف باسمها ، كلما أشرق صبح أو عسعس ليل ، هذه القوة العظيمة الحية التى أوجدتنا هى الله الذى نعبده مخلصين له الدين ، وهذا الهتاف الذى كنت أكرره بسم لذى أوجدنا وما كنا لنوجد بدون موجد ، مازلنا نهتف به قائلين بسم الله الرحمن الرحيم . وسواءاً رضى السيد جارودى أو سخط ، فاننا لن نمل الهتاف بسم الذى خلقنا ، وبسم الذى يملك مصيرنا ومستقبلنا الحقيقى ، بسم الله الرحمن الرحيم .

يا سيد سارتر هل يستعصى عليك أن تفهم هذا القول ، وهل يغضبك يا سيد ماركس أن تعبد الله الذى خلقنا والذى سيرجعنا بعد الموت أحياء .

وفى واقع الأمر . ما كنت بالذى يدخل البشرية فى دوامة عنيفة من الجدل العقيم أو من السفسطة الكلامية ، يزيد بها شكوك البشرية وآلامها

مثلما فعل السيد سارتر ، أو مثلما فعل من قبله السيد ماركس والسيد جارودى وكل ما أقصد أن أبينه للبشرية جمعاء :

إن الانسان موجود على الأرض يبصر ويسمع ويتكلم ويعقل. ويحرص على ما يفيده ، ويتقى ما يسبب له الضرر.

وأقول بعد ذلك إن الانسان يجب أن يحرص على مستقبله سعيد وآمن وكذلك على حاضر سعيد ومطمئن .

وأقول بعد ذلك أن الانسان يجب أن ينظر إلى مستقبله الحقيقى بعين العناية والاهتمام .

وأقول وهو الأهم فى قولى أنه ما دام الانسان يرى نفسه مادة ويرى العالم من حوله يحفل بالمادة ويزخر بها ، وما دام الانسان يعلم يقينا أنه لا بد لكل موجود من موجد أوجده ، فلابد أن يؤمن الانسان بوجود قوة عظمى أوجدت هذا الكون وخلقته من العدم .

فاذا ما آمن الانسان بذلك فيجب أن يعلم أن هذه القوة العظمى هو الله الذى نخلص العبادة ، ونشكره على ما وهبنا من النعم ونرجوه على الدوام أن ينعم علينا بمستقبل آمن سعيد .

وهناك من الناس من يغلو من الضلالة والاثم مدعياً أن الطبيعة هى التى أوجدت نفسها ، بطريقة نجهلها ولا يعنينا أن نعرفها ، وأقول لهؤلاء وأمثالهم ، إن الطبيعة صنم كبير ، لا يعقل ولا يدرك ، ولا يحس ، وهى ليست قوة حية ولكنها قوى وطاقات ميتة ، فالرياح والأنهار والشمس المضيئة ، كلها تكون قوى الطبيعة وطاقاتها ولا يمكن الميت أن يوجد نفسه بنفسه فهذا ما يتنافى مع العقل ، ولا يستقيم مع طبائع الامور .

وإذا ما ادعى هؤلاء أن الطبيعة التي يقصدونها قوة حية وعاقلة وحكيمة وخرجوا بها عن الماديات والأمور التي لها حيز محدد في حدود صوره ، فانني أقول أن ما يسمعونه هم بالطبيعة نسميه نحن « الله » مع فارق بيننا وبينهم هو أننا نعظم الله الذي أوجدنا ونعبده ، ونرجو رحمته ورضوانه وهم يتبعون ظنونهم وأهواؤهم ، دون ما سند من العلم أو من العقل ودون ما برهان من الواقع أو حتى من الخيال .

أذكر أيضاً أن إناساً عاشوا في القرن الماضي ، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم الوضعيين ، رفضوا أن يقطعوا برأي في مسألة وجود الله ، لأنهم اعتبروا كل ما يمكن التكهن به في هذا الموضوع غير قابل للتحقق منه .

ويؤيد السيد سارتر مذهب الوضعيين قائلا :

وهذا الموقف الذي وقفه الوضعيون أقفه أنا مع فارق واحد هو إنني لا أعتبر نفسي أقل ميتافزيقية في رفضي لوجود الله مما كان ليبتتر في تسليمه بوجوده .

ولا يسعني إزاء كل هذه الأضاليل والأكاذيب إلا أن أذكر بالرياضة برهاناً لوجود الله ، ذاكرا في كل خطوة كيف يمكن التحقق من الصحة المطلقة ، لهذا القول .

هناك في العالم مادة بأحجام كبيرة ومختلفة .

(ويمكن التحقق من صحة هذا القول بالبصر ، حيث نري الشمس مثلا) .

ولكن لا توجد فى الوجود مادة بدون موجد لها ·

(ويمكن التحقق من صحة هذا القول بإغلاق غرفة مثلا ، لأى فترة زمنية فاننا سنجدها كما تركناها)

إذاً لا بد أن يكون هناك خالق الكون الذى نعيش فيه ، والمواد التى يحتويه هذا الكون ·

ـ الجماد لا يمكن أن يوجد نفسه ، ولا أن يوجد شيئا سواه ·

(ويمكن التحقق من ذلك بترك حجرة مغلقة بداخلها كرسى مثلا ، فترة من الزمن ، فاننا لا يمكن أن نجد كرسياً آخر بالحجرة أو قبقاب مثلا) ·

∴ هذا الخالق الذى أوجدنا لا بد وأن يكون حياً

∵ الكون معقد جداً ، ويسير على نظام دقيق

(تحقق منه العلم الذى ندرسه)

∴ هذا الخالق حى وحكيم ويحسن التدبير

وهو المطلوب إثباته

وإذا جد فنحن لاننا نهتم بمستقبلنا الحقيقى ، وهذا شىء واجب على كل البشر ، وعلى كل إنسان يعتز بنفسه ويأنف أن يردها موارد التهلكة فى غير ما غاية نبيلة

نحن لاننا نفعل ذلك ، فاننا لا بد أن نلقي نظرة عقلانية إلى العالم الذي نعيش فيه

وإذا كان السيد سارتر يشك فى أن الكون لا يحتمل فى حد ذاته أن يضمن النظر العقلانى العملى فاننا نقول له:

يا سيد سارتر الانسان وجد نفسه على هذه الحياة ومنذ العصور السالفة ووجد حوله الطبيعة بكل ما فيها من عوامل حية وعوامل ميتة وجد الوحوش الضارية تتربص به ريب المنون ووجد الثعابين الخبيثة تحاول كلما واتتها الفرصة أن تدس السم الزعاف فى دمه فكان مندفعاً على أن يحاول الدفاع عن نفسه بالوسائل التى يستطيع اتباعها وكما كان حديثنا فى تبرير الفكر والدعوة إليه ، كان الانسان فى اندفاعه الفكرى الطبيعى والذى لا خيار له فيه ، ملزماً ومطالباً باستكشاف موقعه فى هذه الحياة ، ومن ثم بالسعى نحو تأمين مستقبله الحقيقى منها وذلك بالايمان بتلك القوة التى أوجدته وأحكمت بنيانه ، والتى آمن بها بالفكر وليس بالجهالة .

❊ ❊ ❊

المبحث الرابع

النظام ـ دليل عقلى قاطع على وجود الله

نستطيع جميعا أن نرى الشىء المنتظم وأن نميزه سريعاً .. فاذا كان الشىء مرتبط فى سلوكه بقواعد ثابتة لا يعدوها . . . أما أن يسلك الشىء سلوكا إعتباطياً و بغير إرتباط بقواعد ثابتة فان الشىء يكون فوضويا فى سلوكه . أو غير منتظم السلوك . فالضوء مثلا منتظم فى سلوكه إذ أنه يسير بسرعة ثابتة فى الوسط المتجانس ... وفى خط مستقيم ... أما الحركة البروانية التى تتحركها جزيئات البروتوبلازم فى الخلايا النباتية الحية فانها حركة إعتباطية إذ أنها لا ترتبط بقواعد سلوكية ثابتة .

ولقد نجد فى واقع حياتنا كثير من الأمثلة التى تفرق بين الشىء المنظم أو الذى يسير على نظام ثابت ... و بين الشىء الفوضوى والذى يسير اعتباطيا فى سلوكه و بدون أى نظام . غير أن الشىء الهام الذى أقصده أن الشىء الميت لا يمكن أن ينظم نفسه بنفسه ... إذ أنه لا يملك الارادة التى يسيطر بها على نفسه ... أو يخضعها لقواعد وأسس تنظيمية معينة .

وحينما أقول أن الجماد لا يملك الارادة التى يسيطر بها على نفسه . . . فانى أشير إلى أن الجماد معدوم الارادة كلية ولا يملك على الاطلاق أى نوع من أنواع الارادة . و يستطيع السيد جارودى أن يتحقق من قولى . .. كما يستطيع الوضعيون ومنهم السيد سارتر أن يتأكدوا منه بسهولة .

أحضر يا مسيو جارودى عشر قطع من الخشب وضعها فى أى وضع تشاء

وبأية كيفية تريد . . وأكون كاذبا لو حاولت بعض هذه القطع أو كلها أن تتغير من هذا الوضع الذى فرضته أنت بإرادتك عليها .

فاذا ما وجدنا فى الواقع الذى نعيش فيه جمادا يلتزم بأساليب ونظم معينة .. ولا يحيد عنها فاننا لابد أن نعلل ذلك بأن قوة حية قد ألزمته بهذه النظم وأخضعته لهذه الأساليب بعينها .

وأول ما أضرب به المثل . . . هذه القطعة الصغيرة العجيبة من الحديد الممغنط إنها ترفض بإصرار أن تحيد عن اتجاه ثابت . . . كما أنها تجذب برادة الحديد إليها ... وتأبى أن تجذب النحاس :.. أى أنها ترتبط فى سلوكها بقواعد ثابتة لا تحيد عنها .

وإذا كنا نعلم تماما أن المغنطيس جماد . . . وأن الجماد معدوم الارادة بالنسبة لنفسه ولمن عداه ... فلابد أن نقرر أن قوة حية من خارجه قد ألزمته بهذا السلوك وأجبرته على اتباعه .

ثم لماذا :

تجذبنا الأرض إليها يا مسيو سارتر ؟؟ هل فكرت فى هذا السؤال وأنت تعلن على الملأ أنك شديد الميتافيزيقية فى رفضك لوجود الله .

وكلنا يعلم يقينا أن الأرض جماد . وأن الجماد معدوم الارادة بالنسبة لنفسه وبالنسبة لمن عداه .

وبالرغم من ذلك فان الارض تجذبنا إليها بقوة تطلق عليها قوة الجاذبية الأرضية ... وكلنا يقرر بثقة وإيمان لابد من أن قوة حية عظيمة قد ألزمت كوكب الأرض بأن يجذبنا إليه ... وذلك أيضاً لأن الحياة بدون الجاذبية الأرض حياة صعبة ولا يمكن أن تطاق . ولقد عاش عشرة من العلماء تجربة

علمية بعيدا عن الجاذبية الأرضية . . لفترة قصيرة قرروا بعدها أنها حياة صعبة ولا تطاق . .

ومما لا يستقيم مع طبائع الأمور أن يكون كوكب الأرض قد أخذته الرحمة بنا فقرر أن يجذبنا إليه .. إذ أن كوكب الأرض جماد .. لايفكر ولا يعقل وليست له ارادة .. لكن الذى يستقيم مع طبائع الأمور أن يكون هناك إله قوى رحيم قد ألزم هذا الكوكب بجذبنا إليه رحمة بنا ولحكمة أرادها مولانا جل وعلا

لماذا تدور الأرض حول نفسها ياسيد سارتر . .

ولماذا تجعل دورانها توقيتا دقيقا . . مره كل أربع وعشرين ساعة . . وكيف يتم ذلك يامسيو جارودى . هل تلبس الأرض ساعة حول معصمها : . أو أنها تضع منبها على منضدة بجوار السرير الذى تنام عليه فى غرفة نومها .. وكلنا يعلم يقينا أن الأرض لا تملك عقلا . . ولامعصما . . كما أنها لا تنام على سرير .. وليس لها عين تبصر بها .. كما أنه ليس لها أية ارادة بالنسبة لنفسها أو بالنسبة لمن عداها . وكلنا يقرر بثقة وإيمان .. أنه لابد من وجود قوة حية عظيمة قد ألزمت كوكب الأرض بالدوران حول نفسه . . والدوران مرة كل أربع وعشرين ساعة .. لاتنقص ولا تزيد ، علــــى مر الزمن السرمدى

وكلنا يقرر بثقة مطلقة أن الله جلت حكمته هو الذى أوجد الأرض من العدم ثم أمرها باتباع نظام ثابت ودقيق .. أمرها بأن تجذبنا إليها فجذبتنا دون أن تكون لها ارادة .. وأمرها أن تدور حول نفسها .. فدارت .. ودارت ، ، ومازالت تدور وتدور . . ولن تزال إلى أن يشاء الله رب العالمين

لماذا تجذب الشمس إليها ، يامسيو جاريدى .

هل هناك من يعترض لتلك الكتلة الملتهبة المتوهجة من الغازات والتى نسميها الشمس ارادة بالنسبة لنفسها .

وكلنا يقرر فى ثقة وإيمان أن الشمس جماد ومن ثم فهى لا تملك أية ارادة بالنسبه لنفسها أو بالنسبة لمن عداها ، ولكن قوة حية عظيمة هى قوة الله الرحمن الرحيم قد ألزمت هذه الشمس بأن تجذب الارض اليها ، لحكمة سامية قد يعلمها الناس وقد يجهلونها .

هل أنت الان شديد الميتافيزيقية فى رفضك لوجود الله يامسيو سارتر ..

واود ان تعلم البشرية جمعاءانه لا يعنينى فى شىء أن يقتنع المسيو سارتر بصدق حديثى .. اويغلوا فى ميتافيزيقته الضالة .. عابثا بمستقبله الحقيقى مبددا لطاقته وقدراته فيما لا يحقق نفعا ولايرد ضررا .. لكن الذى أعنيه ويهمنى انقاذ ما يمكن انقاذه من ضحايا سفاح الارواح العالمى الشرير جان بول سارتر الذى لا تدرى به البشر .

إن رجالات العلم من العصر الحديث قد أتبعوا طريقة فى تحصيل العلم تتفق مع كرامة العلم ومع كرامة العقل البشرى والذات الانسانية . ذلك انهم يصفون ما يشاهدون من ظاهرات الكون بأمانة ودقة ثم يضعون آراءهم وتفسيراتهم التى يدعونها ويبرهنون على صدقها بالتجارب العلمية . وبفضل ذلك تقدم العلم قفزا فى جميع مجالاته .. وتقدمت الانسانية بفضل العلم والمعرفه حتى اضحت فى اوج القوة وفى اوج الطموح .

لكن العلم ورجالاته يقفون امام الواقع كما يقف التلميذ امام استاذه .. فهم يستطلعون هذا الواقع ايا كان .. ثم يحاولون تبريره بوسائل ومسببات

عقلانية مقبولة ، ثم يحاول لون التماس ما يبرهن على صدق أسبابهم وعللهم من الواقع بالتجربة العلمية أو الاستدلال العلمى .

وعلى سبيل المثال ، حين يرى رجالات العلم إن الشمس تشرق على بقعه من الأرض ، بينما تظلم عن النصف الآخر منها ، ثم ما يلبث الحال أن ينعكس ، فيضىء المظلم ، ويظلم المضىء ، فان رجالات العلم يقررون أن الأرض مستديرة فى شكل يقارب شكل الكرة ، كما يقدرون أن الأرض تدور حول نفسها ، مرة كل أربعة وعشرون ساعة ، وبالطبع هم صادقون فى قولهم .

لو فرضنا جدلا أن الشمس هى التى تدور حول الأرض ، لما تردد رجال العلم أن يقولوا : إنه نظراً لأن الأرض أصغر من الشمس فانها أسرع منها فى الحركة ، ومن ثم فان الشمس تدور حول الأرض .

كما أننا لو فرضنا أن تعمل على أبعاد الأرض عنها ، لقال رجال العلم موافقين . أن الشمس تبذل قوة من أجل أبعاد الأرض عنها ، لكن الغلاف الهوائى يعمل على الحفاظ على موضعها .

ولو فرضنا أن الأرض تحصل على الطاقة من ذاتها دون تدخل الشمس ، ولم تكن هناك أى علاقة بينها و بين الشمس ، لوافق العلماء على ذلك بسرعة قائلين إن الغلاف الجوى المحيط بالأرض غنى جدا بالطاقات اللازمة للارض ومن ثم فانها تكتفى ذاتياً .

وهكذا ، فان رجالات العلم يقفون أمام الواقع كما يقف التلميذ أمام أستاذه ، فهم يبذلون كل ما لديهم من جهد فى استطلاع أسرار الكون ثم يقبلوها كما هى ، ويحاولون تبريرها أيا كانت وهذا فى حد ذاته شىء حسن ولكن .

غير أنى أجد لزاما علينا أن نتعمق إلى بواطن الأمور . . . وأن لا نقف عند مجرد التبرير . . فبذلك نستطيع أن نكون أساتذة للواقع . . وليس مجرد تلاميذ له .

وعلى سبيل المثال .

نحن نرى الشمس تجذب الأرض . . وبالطبع هذا واقع ونحن ملزمين بقبوله . . ولكن لنا أن نسأل . . لماذا تجذب الشمس أرضنا . . وبالطبع لا يكفى أبداً أن نبرر . . وأن نقول لأنها كانت جزءا منها أو لأن الجزء يجذب الكل إليه . . أو لأن الشمس تملك قوة جذب كبيرة . . لا يكفى هذا أبدا وعلينا أن نبحث وأن نكون أكثر تعمقا .

علينا مثلا أن نقول . . ومن هو الذى منح الشمس قوة الجذب الكبيرة التى تجذب بها الأرض . . أو من هو الذى ألزم الكل بأن يجذب الجزء فى حالة الشمس والأرض .

وعند ذلك سنعلم بوضوح أن الجماد لا يمكن أن يتصرف من تلقاء نفسه وأنه لا بد من قوة حكيمة حية آمرة . . تصرف الأمور بناموس دقيق . . لا يتغير . . هى قوة الله الحكيم العليم .

عند ذلك نكون قد فهمنا حقيقة الواقع وفهمنا حقيقة أنفسنا معه .. وفهمنا أن حالته التى نراها هى حالة معينة أرادها الخالق جل شأنه . . ولو أراد غيرها لكان ما أراد ولوجدنا نحن من الأسباب والعلل ما نفسر به ما نراه .

حسناً . . العقل البشرى شىء باطل يجب أن ترد حركته إلى حركة المادة . . وكذلك العلم وهو الابن الشرعى للعقل البشرى هو أيضا باطل وهو لا يعتبر إلا عن وجهة النظر البورجوازية . . لكان هؤلاء القوم يريدون

البشرية أن تصم آذانها . . وتغمض عيونها وتعطل عقولهم ثم تسلم قيادها لهم . ليقودوها إلى مستقبل بائس وتعيس ،

ولنلق نظرة هادئة إلى أنفسنا . . كل منا يرى نفسه جيداً ويعرف عنها الكثير . . ويكون من لائق لو أنكر السيد سارتر وجود نفسه . . حتى يشبع فى نفسه عقدة الانكار أو الرغبة فيه وأول ما يستثير اهتمامنا فى الانسان . . عقله البشرى العجيب ذلك أنه كتلة من الخلايا الحية . . ولكنها تستطيع أن تفكر وأن تدرك وأن تعى . . وتستطيع كذلك أن تحتفظ بالمعلومات والمعانى بطريقة الحفظ التى نعرفها . . وكذلك فان هذا العقل يعى بطريقة ما زالت مجهولة كل التجارب والخبرات التى تمر بالانسان طول حياته . . بل إن تكرار الخبرة المؤلمة يسبب ما يعرفه علماء النفس بالعقدة .

وهذا ما . . يسجله رجال العلم عن العقل البشرى وعن قدراته التى لا يحصيها العد .

ثم بعد ذلك تأتى مرحلة التعليل التى يحاول رجال العلم من خلالها أن يعللوا الظواهر التى يرونها ماثلة أمامهم .

وفى حقيقة الامر إنه بالرغم من التقدم العلمى وبرغم كل الجهود المخلصة التى بذلها ويبذلها رجال العلم . . فما زالت الحقائق العلمية التى يعرفها العلماء عن العقل البشرى ألغازا يصعب حلها . .وبل ويصعب التكهن بحلول لها . . وما زال الخلاف حاداً بين العلماء حتى حول الحلول التى يتكهن كل فريق منهم بها .

وعندما نأتى للمرحلة الهامة وهى مرحلة التعمق إلى بواطن الامور وسبر أغوارها . فاننا نجد أمامنا فى الواقع أشياء غريبة وبالغة الغرابة .

كتلة من الخلايا الحية تزن حوالى رطل ، تدير الجسم البشرى كله وبكل كفاءة ، فيها مراكز السمع والأبصار والحركة ، الخ . وتخرج منها خطوط اتصال بجميع العضلات الارادية فى جسم الانسان وتصدر منها الأوامر إليها جميعها ، فتنفذ هذه العضلات هذه الأوامر على الفور ، وعلى طريقة : طع الأوامر ولو كانت خطأ ، كما أن بها مراكز اتصال تلتقط كافة الرسائل العصبية التى تصدر من الخارج ، فالعين نافذة العقل على العالم يرى من خلالها ما يدور حوله من أحداث ، و الأذن وسيلة العقل إلى التسمع والمخاطبه وإلى تبادل المفاهيم ، وفضلا عن هذا فان هذه الكتلة تسجل فى داخلها كل خبرة يستطيع الانسان الحصول عليها ، ومن الممكن أن تحتوى بداخلها كل خبرات العالم وكل معارفه .

هذا فضلا عن كثير من الانفعالات التى تزيدنا حيرة وتعجباً .

فحينما يغضب الانسان أو يستبد به القلق ، أو يرتعد خوفا ، فان الجسم بكل الطاقات التى يملكها يستجيب لهذا الانفعال ويتصرف طبقا لما يأمر به العقل ، وحينما يغضب الانسان يعبىء كل قواه لمواجهة ما يغضبه ، وفى اللحظة التى يأمر فيها العقل مراكز القوى بالهجوم أو الدفاع ، فان هذه المراكز لا تتوانى عن العمل ، بأقصى طاقة تستطيع بذلها .

ويأتى بعد ذلك الافكار التى ينتجها الانسان ، فى كل فن وفى كل علم ، فهذا عالم يكتشف ، وهذا فنان يبتكر ، وذاك شاعر يحيل الكلام إلى أداة تعبير جميلة ، وهذا فيلسوف يبحث عن الحكمة وينقب عنها ، وهلم جرا ونخرج من كل هذا بسؤال ، هل كتلة اللحم أو كتله الخلايا المكونة للمخ ، هل هذه الكتله فى حد ذاتها كمجموعة من الخلايا الحية تريد وهل لها فى حد ذاتها إرادة ذاتية ؟؟ .

وأود أن أقول : أنه ليس هناك على الاطلاق أى فارق بين خلايا المخ وخلايا اليد من حيث أن كلا منهما خلايا حية ، أما إذا قلنا أن خلايا المخ من نوع خاص هو الخلايا العصبية الحية فانى أقول أنها تماثل خلايا النخاع الشوكى ، بدون أدنى فارق غير أن خلايا اليد لا تريد ، والانسان يحرك يده كما يوحى إليه عقله ، أى بارادة العقل وليس بارادة اليد ، ولو أن العصب الموصل لأوامر المخ قطع لصار شأن اليد وهى خلايا حية كشأن قطعة من الخشب وهى جماد ، أى بدون أى ارادة لا بالنسبة لنفسها أو بالنسبة لمن عداها ، وأيضاً خلايا النخاع الشوكى لا تريد ، فالمخ فى حد ذاته لا يريد .

لكن الواقع الذى نجده ملموساً أن المخ يريد ويملك الارادة بالنسبة للانسان كوحدة وبالنسبة للوسط المحيط فى الحدود التى يملكها الانسان ، ويسيطر عليها .

ومن ثم فاننا نستطيع القول بأن هناك قوة عليا هى التى تملك وحدها الارادة فى هذا الكون وهى التى تمنح الارادة للعقل بالنسبة لانسانه وبالنسبة للوسط المحيط ، وهى أيضاً تسيطر مباشرة على الجماد وتجعله يلتزم بقواعد وأساليب معينة .

وهذا فى الواقع التفسير الوحيد للعقل البشرى العظيم ، الذى حمل على عاتقه كشف أسرار هذا الكون ، كما حمل على عاتقه تذليل كل عقباته والوصول إلى حاضر سعيد مستقر ومستقبل آمن وسعيد .

هل رأيت يا سيد سارتر هذه الدودة الصغيرة السوداء التى تبلغ فى حجمها حجم رأس الدبوس ، والتى تتظاهر بالموت ، إذا ما وضعت أصبعك

قريبا منها . . ثم ما تلبث أن تتحرك خفية . . فاذا ما لاحقتها بأصبعك فانها تكرر التظاهر بالموت ، حتى إذا ما تيقنت أن هذه الحيلة لن تجدى ، طارت فى الهواء بعيداً .

وهل تعلم يا سيد سارتر أن فى هذا الحجم الذى يماثل حجم رأس الدبوس جهاز تنفسى ، وجهاز هضمى ، وجهاز دورى وأعضاء للحركة على الأرض ، وأعضاء للرؤية ، وأعضاء للطيران ، وبعد ذلك وفضلا عنه جهاز عصبى مركزى « مخ » يقوم بوظائف التفكير فى إعداد الخطط للدفاع عن حياه الدودة أو للتخفى عن أعدائها .

وإذا كنا نعلم ذلك ، فما نعلم تعليلا حقيقيا له إلا أن الله ذو العظمة والجلال منح هذه الدودة الصغيرة فى الحجم إرادة على ذاتها وعلى الوسط المحيط بها ، بقدر إرادة لها سبحانه وتعالى :

وذلك التعليل لا يعد من العلم فحسب بل يعد من روح العلم ، إذ أن العلم كما أوضحت يقف من الواقع كما يقف التلميذ من أستاذه ، ولكن روح العلم يقف من الطبيعه موقف الأستاذ لتلميذه ، ولا شك أنه لا يمكن أن يكون هناك أدنى تعارض بين العلم وروحه كما يتصور او يصور أعداء العلم وأعداء الانسانية جمعاء .

هل رأيت يا سيد سارتر القلب الانسانى ، وهل سمعت دقاته ذلك القلب الانسانى الذى يدق أول دقاته عقب خروج الانسان إلى الحياة ، وتظل دقاته مدوية طالما كانت هناك حياة ، وحين يتوقف هذا القلب وتصمت دقاته ، فان الحياة تتوقف وتفارق الانسان ويصبح الانسان شأنه كشأن الجذوع وقطعة من الخشب .

وإذا ما كان الانسان يعلم ذلك تماما . . . وإذا ما كان الانسان يعلم أيضاً أن القلب ينبض لا إراديا . . . أى بقوة خارجة عن إرادة الانسان فانه لابد أن يفكر . . بأى إرادة ينبض قلبه . . . وبأى إرادة يتوقف هذا القلب عن النبض .

وإذا كنا نعلم يقينا أن القلب ينبض بانتظام حوالى ٧٠ دقة كل دقيقة فاننا لابد أن ننسب الحركة إلى القوة العظمى التى منحت كل القلوب الانسانية إرادة ذاتية هى النبض .

ويقول الشاعر الصوفى مخاطباً مولاه جل وعلا :

أحبك قلبى حين أدرك نبضه   بأنك سر النبض سر السرائر

وكذلك يخبرنا العلم أن فى جسم الانسان كثير من العضلات التى لاتتحرك تبعاً لارادتنا ولكنها لا تتحرك بمزاجها الخاص وبارادتها الخاصة . ولكننا نعلم أنه لا يمكن أن تكون الارادة إلا للكائن الحى المستقل . . . وبالطبع القلب ليس كائن حى مستقل . . . كذلك فان العضلات اللاإرادية ليست كائنات حية مستقلة . . . ونحن نعلم أيضاً أن القلب وكذلك العضلات اللاإرادية تتحرك طبقاً لقواعد وأسس ثابتة أى تتحرك بانتظام . . . فلا بد أن نعلم أن هناك قوة عظمى قد منحت هذه الأعضاء إرادة ذاتية تعمل بها مستقلة عن إرادة الانسان وفى سبيله . . . وفى سبيل حفظ حياته . . . وتأدية الوظائف الحيوية التى ترتبط بها .

هل رأيت أوسمعت عن الميتوكوندريا يا سيد سارتر . أنها كما يقول العلم جسيمات [١] صغيرة جداً تبلغ جسم الواحدة منها $\frac{٣}{١٠٠٠٠٠٠}$ من المليمتر المكعب .

(١) نقلا عن محاضرة للدكتور أحمد فرج راضى محاضر علم فسيولوجيا النبات بكلية علوم أسيوط .

ورغم ذلك فان هذه الجسيمة التي تبلغ من الضآلة أقصاها . . حينما وضعت تحت ميكروسكوب الكتروني . . ثبت أنها على شكل صندوق ذو ثلاثة جدران . . وبداخله أرفف . . فوقها أنزيمات لازمة لحياة الخلايا النباتية الحية . .

ما قولك يا مسيو سارتر . . فيمن أوجد هذه الجسيمات . . هل أقل من أن نصفه بأنه بالغ الحكمة والقوة . . يقدر فيحسن التقدير . . ويدبر فيحسن التدبير . . وهناك أيضاً شيئاً نذكره هو أن جسم الكائن الحي . . لا يريد ذاته ولا يستطيع الارادة على نفسه . . فالفيل مثلا لا يستطيع جسمه أن يتحول من ذاته إلى جسم غزال أو نمر . . والانسان مثلا لا يستطيع جسمه من ذاته أن يتحول إلى جسم عصفور . . كذلك لا يستطيع جسم البقرة الخضراء أن يتحول إلى لون أحمر . . مثلا . لكننا وبالرغم من ذلك نجد أن هناك كائنات حية تستخدم التغير في لون جلدها كوسيلة للدفاع عن نفسها . . فهذه الحرباء حينما تكون في أوراق الشجر تكون خضراء . . وحينما تكون في الرمال تكون صفراء . . فهل أدرك جسم الحرباء أنه بهذه الوسيله يكون آمنا من أعدائه . . أو متخفياً عنهم . . وهل الحرباء أكثر مهارة من كل ما عداها من الكائنات الحياة حتى تستطيع أن تغير من لون جلدها تغييرا ذاتياً . . بدون وسيلة . . وبالطبع نستطيع جميعاً أن نعرف أن قدرة الله العظيم ورحمته هي التي منحت جلد الحرباء إرادة ذاتية ليغير لونة وفقا للوسط المحيط .

وحينما نتأمل شئون الكون وطبائع الأمور يتأكد لدينا بما لا يدع للشك مجال أن الذي أوجد هذا الكون يقدر فيحسن التقدير . ويدبر فيحسن التدبير . . فهذا النبات الضارب في الأرض بجذوره . . والباسق في الفضاء

- بفروعه ، مصنع كبير ، يقوم على أسس دقيقة وموازنة ، يحفظ الحياة لنفسه - أعني للنصر ، ويحفظ الحياة لمن عداه من الكائنات مصنع كبير ، ينتزع من الهواء الجوى ثانى أكسيد الكربون الذى يخرج من فوهات المصانع فى المدن والذى يهدد البشرية بالدمار ، ثم يصنع منه ومن المياه وطاقة ضوء الشمس ، غذاء الانسان والحيوان ، لولاه ما عاش إنسان ولا حيوان .

ذلك يدل على حسن تقدير وحسن تدبير وهذا لا يتأتى عفوا أو اعتباطا ، لكنه يدل على قوة مقدرة ومدبرة قد أوجدت الكون ومن فيه هى قوة الله الرحيم .

النبات ينبت من البذور ، والبذور كائنات حية فى وضع سكون ، والانسان هو الذى قد ينقها للتربة ، ثم تنشط فيه وينمو الكائن الحى النباتى ، لتنمو شجره كبيره باسقة تحافظ على حياه الانسان وتمده بالغذاء .

ولقد يأخذك العجب حينما تشاهد بذرتين متماثلتين فى الحجم تنتج كل منها شجره مختلفة عن الأخرى تمام الاختلاف ، فكأن كلا منهما قد حفظت أصل آبائها كابرا عن كابر ، وكأن كلا منهما قد عملت بوصية والديها ، أو أجدادها ، ولقد نجد البذور من يزود نفسه بأهداب تعمل عمل الأجنحة تطير بها فى الهواء حتى تنشر نوعها فى ربوع العالم كله ذلك من تقدير حكيم عليم ، ذلك من تقدير ربها الذى يقدر فيحسن التقدير ويدبر فيحسن التدبير .

وأود أن أكتب للوضعيين وللمسيو سارتر : البرهان الثانى لوجود الله ، بنفس الطريقة الرياضية التى ذكرت بها البرهان الأول :

الميت لا يملك الارادة التى يسيطر بها على نفسه .

و نستطيع التحقق من ذلك بأن نحضر قطع الطوب أو من الخشب ونضعها كما نريد فانها لن تحاول تغيير مواضعها) .

الجماد لا يمكن أن ينظم نفسه

* * *

هناك كثير من الجمادات تخضع لنظم وأسس ثابتة لا تحيد عنها .

(نستطيع التأكد من ذلك بملاحظتنا للمغناطيسية والجاذبية الارضية ، الخ) .

∴ فلا بد أن تكون هناك قوه عليا حية قد نظمت هذه الجمادات وأخضعتها لأسس ونظم ثابتة) .

وهو المطلوب إثباته .

* * *

نحن بالطبع لم نرتكب خطأ أو جرماً ، وكل ما فعلناه هو أننا قد نظرنا إلى مستقبلنا الحقيقى نظره اهتمام ، حتى ننجوا كما نجى الحاكم العاقل الذى أوردته الرواية القديمة ، وحتى لا نؤخذ على غره فنهلك ونضيع ، وتحز فى نفوسنا ألم التحسر ومراره الندم غير ما جدوى أو نفع .

ونحن بالطبع لم نخطىء حين قررنا أن ننظر إلى العالم نظره عقلانية علمية ، إذ أن النظره العقلانية العلمية هى كل سلاحنا وهى أيضاً سبيلنا إلى تكريس طاقاتنا وما نملك من جهد وإمكانيات لصالح الحاضر الذى نحياه ، ولصالح المستقبل العريض على امتداد الزمان الذي لا ينتهى فى سيرورة زمانى .

فالأيام تسير وتتابع ، ولا بديل عن يوم ماض إلا يوم آت ، وإلى أن تزول الأيام وتزول دلالتها الزمنية ، يبقى الزمان بدلالة أخرى ، يعلمها الله الذي أوجد الزمان دلالته ، التي قبلناها نحن كأمر واقع .

وإنني لاتصور وأقرر أن العقل كل العقل والحكمة والفطنة والذكاء والدهاء وما إلى ذلك من دلالات الاستحسان ، ليجب أن تسبغ فقط ، وفقط على ذلك الذي يعطي جهداً وفكراً اتأمين نفسه في ذلك الزمان الذي ما زلنا نجهل دلالته الزمنية وإذا هو فعل ذلك فانني أتيقن بشده إنه سيهدى إلى الحق والخير وإلى صراط مستقيم .

ooooooooooooo ٣٢ ooooooooo

المبحث الخامس

الإلهام – كدليل عقلي قاطع على وجود الله

يقترب الالهام فى معناه من الارشاد ، فالمرشد هو من يرشدك إلى سلوك معين ، ثم يترك لك الحرية فى اتباعه ، أما الملهم فهو من يوحى إليك بطريقة غير منظورة سلوكا معيناً ثم لا يترك الحرية فى إتباعه أو مخالفته ، وبحيث يكون الاجبار ذاتياً .

وعلى سبيل المثال حينما يحضر إلى أحد بالاصدقاء ثم ينصحنى قائلا : « لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد » فان صديقى هذا يعتبر مرشداً لى وأستطيع أن أنفذ إرشاده ، كما أستطيع أن أصرف النظر عن قوله ، أما حينما أجد نفسى وبرضى وبدون تدخل أحد وبدافع ذاتى مندفعاً إلى الجنس الآخر ، ومنفذا لسلوك معين هو وجوب العمل على المحافظة على الجنس البشرى بالتناسل وإنتاج أجيال جديدة أو ما يعرف بالمحافظة على النوع فان ذلك له تفسير آخر يختلف عن الارشاد .

ولقد يتأمل الانسان كثيراً فى هذه القضية الفكريه شىء ينفذ رغم أنف منفذه وبدون أى ضغط خارجى وبدافع ذاتى عنيف .

وحينما تحدثت عن الارادة ذكرت أن الجماد ليست لديه أية إرادة لا على نفسه ولا بالنسبة لمن عداه ، ومن ثم فانه لا يستطيع أن ينظم نفسه بنفسه أو يخضع نفسه بنفسه لقواعد وأسس سلوكية معينة ، فاذا ما كان هذا الجماد يتبع فعلا نظاماً معيناً لا يعدوه فان هذا يدل دلالة قاطعة على أن قوة حية

خارجية قد نظمت هذا الجماد وأخضعته لتلك القواعد والأسس السلوكية التى نراها .

هذا بالنسبة للجماد أو الشيء الميت ؛ أما الكائن الحى الحيوانى الراقى فان له إرادة يستطيع أن يفرضها على نفسه وأن يتصرف فى حرية بما يتلاءم مع بيئته وظروف حياته ؛ وحينما ينفذ الكائن الحى شيئاً رغم أنفه أعنى بدون إرادته فلا بد أن تكون هناك إرادة أقوى من إرادته قد أجبرته على تنفيذ ما لا يريد ، ومثل ذلك الانسان الذى يرتكب خطأ فى حق المجتمع الذى يعيش فيه بالسرقة أو القتل ، ثم يرى المجتمع أن من اللائق عقابه بالسجن مع الأشغال الشاقة فان هذا الانسان ورغم إرادته يقضى فترة فى السجن يتخللها العمل الشاق الذى ينفذه رغم أنفه لأن إرادة تفوق إرادته قد أجبرته على هذا العمل .

أما إذا كان الكائن الحى المريد ينفذ شيئاً رغم أنفه وبدون ما إجبار من إرادة خارجية منظورة أقوى من إرادته فاننا لابد أن نقول أن الدافع إلى ذلك ذاتى ، بمعنى أن هناك إرادة ذاتية عند هذا الانسان تقف ضد الارادة الأصلية له ، وتعمل على إجباره على تنفيذ هذا الشيء ونحن نطلق على الارادة التى تجبر الانسان على سلوك معين ضد إرادته الأصلية بالالهام أو الغريزة وهذا الالهام أو تلك الغريزة تدل دلالة لا يتطرق لها الشك على وجود الله . وتنفى وتمحى بكل شدة أقوال السيد ميلرتر ، وأذكر للتدليل :

ثعبان السمك الذى يعيش فى شواطئنا المصرية ويسافر كل عام إلى المحيط الاطلنطى وفى منطقة خاصة منه حيث يعقد مؤتمر عام لثعابين السمك التى تعيش فى العالم أجمع ثم تتكاثر هناك وتنقل راجعة إلى أوطانها الأصلية ثم تعود صغارها كل إلى وطنه الأصلى دون أن تضل الطريق ، أليس يحق علينا أن نتساءل :

- هل تعرف ثعابين السمك فى العالم أجمع أنه يجب عليها أن تلتقى فى مكان معين كل عام ، وبالطبع لا ، فثعابين السمك لا تعرف لغة المؤتمرات التى ينظمها الانسان كما أنها لا تعد الخطط والمؤامرات لبعضها أو لغيرها من الأجناس .

ولو كانت تعرف أنه من الواجب أن تتحرك إلى هذا المكان لفرط فى الواجب كثيرون معتذرين بطول الرحلة أو بقلة الزاد والراحلة ، ولكنها تتحرك بلا إرادة أو بما ما نسميه بالغريزة ومن ثم فان كل ثعبان سمك فى العالم يجد نفسه فى فترة معينة من الزمن متحركا إلى بقعة معينة ، وصغاره التى ترى العالم لأول مرة تعود أدراجها فى نفس طريقه دون أن تضل الطريق .

من أين جاءت الغريزة وليس هناك من تعليل صادق إلا أن الله سبحانه وتعالى قد ألهم هذه الثعابين أن تفعل ما فعلته لضرورة يعلمها جل وعلا وهى ضرورة حفظ النوع وهى لا تعلمها ولا تدرى عنها شيئاً بل تفعلها بدون إرادة وبدون وعى .

ولعل هناك من يقول ألم يكن من الممكن أن تبقى الاسماك حيث هى وتتكاثر حيث هى ، وتحافظ على نوعها فى أوطانها الاصلية ، وأود أن أقول : إن الله الكريم أوجد الوجود وأوجدنا نحن البشر على قمة الوجود نفكر وندرك ونعى ، نفكر فى الوجود وندرك أنه لا بد له من موجد ونعى أن هذا الموجد هو الله .

وبرغم ذلك وجدنا رجلا مثل المسيو جارودى يعلن أنه لا يؤمن بالله لانه ينكر أية معرفة إلا إذا كانت داخل نطاق المعرفة العلمية ، وهذا بالطبع قول ساذج ينكره العلم وهو أيضاً منكر يكفى أن نرد عليه بالقول : ومن أدراك يا مسيو جارودى أن وجود الله ليس فى داخل نطاق المعرفة العلمية .

وبعد ذلك أخضع الجمادات لأسس وقواعد ثابتة ، فالضوء مثلا يخضع لأسس وقواعد ثابتة والارض تخضع لاسس وقواعد ثابتة رغم أن كل منها جماد ، حتى نتيقن من أن هناك قوة حية عليا قد نظمت هذا الجماد ، وجعلته يسير على أسس ونظم معينة لا يحيد عنها .

وهو أيضاً أوجد الغرائز والالهامات فى الاحياء من خلقه كى يوعز إلى الانسان فى وضوح إنه بما أن هناك إرادة فى نفسه ضد إرادته الاصلية وتفوقها من حيث القوة وتدفعه رغم أنفه إلى القيام بأشياء أو تنفيذ أعمال معينة ، إذا فلابد أن تكون هناك قوة عليا هى التى فرضت على الانسان من ذاته إرادة ضد إرادته وتستطيع الآن أن نبحث فى ضوء هل العلم يتعارض مع وجود الله وهل الايمان بوجود الله ليس فى داخل نطاق المعرفة العلمية كما يقول السيد جارودى .

وإذ كنا نحن نقول إن العلم هو النتيجه المباشرة للنظرة العقلانية للأمور أو الواقع بمعنى إننا ننظر إلى الواقع ونفكر فيه تفكيراً سليما ثم نكتشف أسراره وخفاياه ونحاول الاستفادة من اكتشافاتنا هذه فى حياتنا العملية .

ونحن حينما ننظر إلى العالم نظرة عقلانية سنقرر إنه يحفل بالمادة ويزدحم بها كما أننا أيضاً حين ننظر إلى الواقع نظرة عقلانية سنقرر أن المادة لا تفنى ولا تخلق من العدم والطاقة لا تفنى ولا تخلق من العدم وإنه لا شىء يوجد تلقائياً من اللاشىء وحينئذ إذ نعلم يقينا إنه لابد من وجود قوة حية عليا قد أوجدت هذا الكون ومن فيه .

ولقد يعلن العلم إن ذلك النبات الذى يأكل الحشرات أكثر « شطارة » من النبات العادى إذ أن النبات الذى يأكل الحشرات أكثر حساسية وانفعالا من النبات العادى .

ولكن النبات كما نعلم يخلو عادة من وجود جهاز عصبي مركزى وبذلك فان النبات لا يفكر وليس له ذلك الاحساس بالألم الذى يشعر به الحيوان .

فحين يقوم الانسان بذبح طائر مستأنس أو حيوان بقصد الحصول على عضلاته واستخدامها كبروتين حيوانى فأننا نجد أن كمية ضخمة من طاقات الالم ستهدر فى عملية الذبح أو القتل ، أما حينما نقتلع شجرة من مكانها فأنها لن تتألم ولن نرى ايا من طاقات الم أو عذاب .

وإذا كنا نعلم ذلك فمن هو الذى جعل النبات الذى لا يفكر يقوم بتنفيذ أخبث الحيل وأ كثرها دقة لأسر الحشرات والتغذى بها . . فهو يفرز رحيقاً حلواً يغرى الحشرات بتتبع مصدره ... فاذا ما انطلقت الحشرات إلى داخل تجويف معين قفل عليها خط الرجعة وأفرزت عليها عصارات هاضمة تقوم بهضم وتحليل الحشرات تمهيداً للتغذية منها ويحق علينا أن نتساءل أو نسأل أنفسنا هل يعلم هذا النبات ، أن الحشرات تحب الرحيق الحلو ... وهل درست هذه النباتات علم نفس الحشرات حتى تعلم ذلك والاجابة بالطبع لا أنه لا يمكن أن تكون هذه النباتات قد فكرت إذ أنها لا تملك جهاز عصبى مركزى تفكر به ولو اعتقدنا أ ن النباتات تفكر لكان من الصعب علينا أن نتصور كيف أستغل الانسان هذه النباتات منذ خلقت و لصالحه دون أن تحاول إحداها أن تقاوم أو تدافع عن نفسها أو تفكر ذلك . . وإذا فلا بد من أن قوة الرحمن الرحيم قد منحت هذا النبات بالالهام قوة الحيلة التى يستطيع بها أن يخادع بها الحشرات ويتغذى بمادة جسمها وبدون مبالاة بطاقات الألم التى ستهدر من هذه الحشرات فى موتها ، وبالمناسبة أجدنى مدفوعا للمقارنة بين هذا السلوك الغريزى للنباتات و بين سلوك ألزم به نفسه شاعرنا العربى أبى العلاء المعرى فما من شك أنه لموقف نبيل حقاً أن يلزم إنسان نفسه بالا يهدر فى حياته أية

طاقات ألم أو بمعنى أصح ألا يتعدى بالقتل على من دونه من الحيوانات ...
ولقد ألزم شاعرنا العربي نفسه بهذا السلوك النبيل فأبى العلاء المعرى أنبل فى واقع الأمر من هذا النبات . ولكن أبا العلاء المعرى قد مات وقد تألم عند موته وكذلك كل الطيور وكل الحيوانات التى كانت حية فى عصره قد ماتت وقد أهدرت عند موتها طاقات الألم . . . وكذلك كل حى لا بد أن يموت ولا بد أن يتألم :

أو كما يقولون :

من لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الأسباب والموت واحد

إذا فهذه الحشرات التى تغذت بهذا النباتات . كانت لا محال ستموت . أليس من الأليق أن يكون فى موتها ما يسبب لغيرها الحياة أو يزيد فرصته فيها .. وبهذا يكون النبات أكثر حكمة من أبى العلاء المعرى .

وشىء آخر أخطأ أبى العلاء فى تقديره وهو أنه اعتبر حياته على الأرض نقمة وليس نعمة فهو يقول فى هذا .

هذا جناه علىّ أبى   وما جنيت على أحد

وبالطبع هذا شىء خاطىء فالله الكريم قد منحنا فرصة الحياة كنعمة منه علينا إذا أنه أتاح لنا فرصة التأثير فى الكون الذى نعيش فيه كما منحنا الفرصة لسمو بأنفسنا إلى مراتب عليا دونها مراتب الملائكة الأبرار الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويسبحون بحمده بكرة وعشيا .

وهذا لا ينفى بالطبع أن حياتنا مسئولية كبرى ملقاة على عواتقنا . كما لا ينفى أن ذلك الذى يستهين بحياته ويهمل مستقبله فيها سيتحمل المسئولية كما ينبغى أن تكون . . .

ثم كان ما ادعاه الحاقدون على شاعرنا العربي ردحا من الزمان وهو أنه أنكر وجود الله وكذلك البعث والحساب وأن من أقواله في هذا الشأن :

أموت ثم بعث ثم حشر .. فتلك خرافة يا أم الزمان

وهم يدعون أن المعري كان يتعلل في ذلك بأنه ليست هنالك بينة واضحة تثبت له وجود الله وأن الناس قد اختلفوا فيما بينهم في ذلك الشأن غير أن ذلك كله كما يتضح لنا الآن محض افتراءات كما أن هناك ألف دليل ودليل على وجود الله كما أن العلم والمعرفة وكل ما يأخذه الانسان بعد النظر العقلاني ويسجله تدلل بصدق وبصراحة على وجود الله .

ولقد أرى الله بعين الفكر واضحاً كأقصى ما يكون الوضوح ولقد استخدم الطرق العلمية والوسائل العقلانية في هذه الرؤية فلا تزيدها إلا روعة وبهاءاً ، ولقد يلجأ الكثيرون إلى الجدل الموضوعي أخذاً بالتأمل معتمداً عليه وذلك ما نعرفه بروح العلم أو الفلسفة ويقحمها على هذه الرؤية فلا يزيدها ذلك إلا ثباتاً وإشراقا .. وما أعرف في عالمنا شيئاً يزيد في ظهوره للمقول عن ظهور الله ، أن الله لا نهائي في ظهوره بل أن كل حقيقة تحمل الشك في ذاتها مهما كانت إلا حقيقة وجود الله أنني أسميها على الدوام الحقيقة المطلقة ولقد قرأت في ذلك أبيات شعرية . أكتبها لمجرد الاعجاب بها .

بقلبي وإيماني بفكري وخاطري	بروحي ووجداني أراك معظماً
فأنت الذي تسمو إليك مشاعري	لتشكر عني أنعماً وتكرماً
وأنت الذي أرنو إليك بناظري	وروحي بنور من جلالك تخشعاً
وأنت إلهي ما بذلك ريبة	وأنت إله الكل والخلق أجمعاً
خلقت فؤادي يا مهيمن	فانبرى بحبك قلبي شاكراً ومعظما

ومن هذا الذى تعمى بصيرته حتى لا يرى يد الله الرحيمة وهى تمتد بالرحمة إلى العالم أجمع لتعم رحمة الله كل شيء .

فلتنظروا يا بنى البشر إلى حنان الأم الدافق نحو وليدها . . . ذلك الحنان الذى لولاه لكانت الحياة على الأرض أصعب مما نتصور ومما نطيق أو نتحمل هذه اللبؤة المتوحشة التى تهدر كل يوم كميات ضخمة من طاقات الألم دون ما شعور بالذنب أو تأنيب من الضمير ، كيف تتحول أمام أبنائها إلى مخلوق لطيف حنون . . . تدفع عنهم الأذى وتضحى فى سبيلهم بكل ما تستطيع من جهد وحتى الحياة إلى آخر لحظة فيها .

وهذا الثعبان الخبيث المتوحش الذى يدس السم فى جسم الكائن فتتدفق الآلام فى جسمه وتقضى عليه بالهلاك هذا الثعبان بالرغم من ذلك تحتضن أنثاه البيض زمانا . . . وترعى صغارها وتحنوا عليهم وتبر بهم كأحسن ما يكون البر وكأحسن ما تكون الرعاية .

هكذا نجد أمام أعيننا وبوضوح هذه الشحنات الرائعة من الحب والحنان الذى تحمله كل أنثى نحو وحيدها بالغريزة أو بالالهام من الله الرحيم ومهما كانت طبيعة حياتها فالأسماك فى البحر تجتهد لبيضها مكانا هادئاً وقد تحضنهم فى فمها زماناً وهذه التماسيح المتوحشة تجتهد فى دفن بيضها فى الرمل تحت الشمس حتى تدفىء أشعتها هذا البيض وتعمل على فقسه ومن الحماقة أن نتصور أن السمك تدرك بالعقل أن فى هذا الحنان محافظة على جنسها إذا أن هذه الأسماك يأكل كبيرها صغيرها ولكن الاصح أن نقول إن الغريزة وحدها هى التى تدفع الاسماك إلى هذا السلوك وهذه الغريزة قد ألزمت بها هذه الاسماك إرادة الله الرحيم أرادها جل وعلا إذ أن هذه الغريزة تمثل إرادة خفية تنبع من ذات السمكة بعيداً عن جهازها العصبى المركزى وتدفعها إلى سلوك

مفيد لا تعلم هى نفسها مبلغ فائدته أو أهميته . ومثل ذلك الاقبال اللاارادى بين الجنسين ومن جميع الانواع والخصائص والذى يعد أساساً لعمران الكون فالعصفور المغرد والوحش المفترس والانسان الذى يحاول التحكم فى غرائزه ، كل تلك الانواع رغم تفاوتها واختلاف طباعها تقبل على التناسل والتزاوج بإرادة غامرة تنبع من ذواتهم وبدون ماضغط خارجى عليهم ولايستطيع إنسان مهما كان عناده ولجاجته ان ينكر وجود قوة حية عليا قد غرست هذه الغريزة فى نفوس الخلق حفاظاً على عمران الكون وعلى أنواع أحيائه .

ولقد نجد على الحياة وفى الحياة وفى الواقع الذى نحياه صوراً إلهامية ممتعة نقف أمامها متأملين بل ولربما كان الانسان فى حاجة إلى عظات وعبر من هذه الصور الرائعة .

ولتنظروا يا معشر البشر إلى مملكة النحل إن فيها لآية أى آية فجميع النحل فى جميع العالم أجمع تعيش فى جماعات متعاونة ولكل جماعة منها ملكة وجيش يدافع عن مسكنها وشغالات أو عمال يقومون بتربية الصغار وجمع الغذاء ولتفكروا يا معشر البشر من أين يتأتى للنحل أن تنظم نفسها على هذا النظام الذى تسيرون عليه فى العالم كله وإذا كان العقل ينفى ذلك فما من شك فى أن هـــذا السلوك سلوك غريزى من وحى القدرة الالهية الرحيمة . هل تعتبرون يا أولى الالباب .

ولتنظروا يا معشر البشر إلى مملكة النمل تلك الآية البينة وذلك النموذج الرائع للجد والاجتهاد والنشاط واللايأس فلمملكة النمل حكومة وجيش ومجلس دفاع أعلى ومصانع وعمال كل يعمل فى مجال اختصاصه بدون كلل وبدون تواكل ، وبكل إخلاص . . . هل يعلم المسيو سارتر أن النملة إذا ماحصلت على حبة فانها تقسمها إلى شطرين حتى لاتنبت وإذا كان نصفها ينبت

شطرتها إلى أربعة أقسام متماثلة . . هل يعلم المسيو سارتر أن بعض النمل يستغل حشرات أخرى تماما كما يستغل الفلاح ماشيته إذ أن بعض النمل تربى بعض أنواع من المن تطعمها و تسقيها و تحصل على إفرازات حلوة من غدة خاصة بجسمها ؟ وهل يعلم السيد سارتر أن بعض النمل يمارس مهنة الزراعة بشكل يقارب ما يفعله الانسان و يسير النمل فى صفوف منتظمة ويخوض حروبا ضارية دفاعا عن نفسه أو هجوماً واعتداء .

و أود أن يسأله الانسان نفسه هل الجهاز العصبى المركزى للنملة هو الذى يملى عليها كل هذه الافعال و نستطيع فى تيقين أن نقول بل إن القدرة الالهية الرحيمة تعطينا الامثال و الادلة حتى نهتدى و حتى لا نضل .

و نظرة أخيرة إلى أنفسنا فهذا هو جسم الانسان يعمل ويؤدى وظائفه بانسجام كامل وبفعالية وإحكام حينما يشتد البرد فان الغدة الفوق كلوية تفرز إنزيم الادرينالين الذى يحول بعض الدهون المختزنة إلى طاقة حرارية و بذلك تعود إلى الجسم حالته الطبيعية التى ينشدها ولقد يقال أن الغدة النخامية أو الغدة الرئيسية أو المتحكمة أو المسيطرة التى تقع أسفل المخ هى التى تسيطر على نشاط الجسم الحيوى و هى التى تنظم علاقات الغدد ببعضها حتى يؤدى الجسم وظائفه بدون خلل أو تناقض و بكل انسجام . ولكن وهذه الغدة الرئيسية التى تقع أسفل المخ من يرشدها إلى سلوك منتظم دقيق . أعنى من يلهمها هذا السلوك المنتظم الدقيق ومن يجبرها عليها بل ومن يعطيها سلطة الرئاسة على نشاطات الجسم الحيوية كلها و بدون أدنى شك لا بد من وجود الله الرحيم التى تلهمنا أن نفعل مامن شأنه الحفاظ على حياتنا و بدون أن نفكر وبرغم إرادتنا .

هذا النبات الشوكى الذى ينبت فى الصحراء والذى لا يملك جهاز عصبى مركزي ولا غدة نخامية ومع ذلك نجده يؤدي وظائفه بانسجام كامل و نجيده

ينظر إلى الأمور من حوله فكأنه يعقل و يسمع ويرى حينما يعلم أن الحيوانات قد تتغذى به فانه يجعل لنفسه أشواكا تعوقها ويدافع بها عن نفسه كما يجعل أوراقه مرة وغير مستساغة لتغذية الحيوانات و حينما يعلم أن الجو من حوله جاف وأن الماء فيه نادر فانه يحاول ما أمكنه أن يحافظ على الثروة المائية فى داخله ولا يأنف أن يحول أوراقه كلها أشواكا حتى تقل نسبة بخر الماء من داخله متخذاً بذلك قراراً حاسماً ومفيداً ... هذا النبات لم يفكر فى ذلك لأنه لا يملك وفق ما يقول به العلماء أى جهاز عصبي لكن الذى دبر وقدر هو الله الذى يقدر ويحسن التقدير ويحسن التدبير .

وإن نظرة صادقة إلى الكون وشئونه تكفى فى حد ذاتها أن تبرهن لنا على أن الكون كله قائم على أساس الالهامات والغرائز فبدون الغريزة الجنسية التى تدفع الجنسين معاً إلى التزاوج الذى يؤدى إلى حفظ النوع من الانقراض . بدون هذه الغريزة كان المصير الأوحد للعالم الحى هو الانقراض كما أنه بدون غريزة عطف الأمهات على أبنائهم كان هلاك الأبناء محتما وكان الدمار للعالم الحى حتما محتوما وهكذا نعلم يقيناً أن وجودنا على الأرض لا يأتى من تفكيرنا فحسب أو أن كفاحنا على هذه الحياة وانتصارنا على عوامل الفناء ليس بفضل نظرتنا العقلانية للعالم واستفادتنا من هذه النظرة فحسب بل هو أيضاً بتدبير حكيم عليم وهبنا من الغرائز والالهامات مايساعدنا على مجابهة الحياة والانتصار على عوامل الموت فيها أو عوامل الاندثار بها ما نحمده وعلا عليه ونشكره دوماً ودواماً .

وذلك فى واقع الأمر مايدفعنا عقلانيا إلى الايمان بالله جل وعلا كما يدفعنا أخلاقيا إلى الايمان به سبحانه وتعالى . كمظهر من مظاهر النبل الاخلاقى في هذه الحياة .

المبحث السادس

فى رحاب الايمـان

الايمـان الفطرى بالله القادر العليم

الايمـان بالفطرة لا يعنى إطلاقا الايمـان بالوراثة ... فالايمان بالوراثة قد يعنى التقليد الأعمى ، تماما كما يقلد الببغاء أصوات من حوله من الكائنات دون أن يعى منها شيئا .. لكن الايمان بالفطرة يختلف عن هذا كثيراً .

وما أعنيه بالايمان بالفطرة هو إيمان ذلك الانسان الذى لا يقحم نفسه فى فلسفة أو منطق ولا يشغل عقله فى تفكير أو جدل عقيم ... لكنه يسير طبقا لما توحى إليه طبائع الأمور وطبقا لما يوحيه إليه عقله ووجدانه .. فى هذه الحياة .

فالانسان يرد إلى العالم ضعيفا لا حول له ولا قوة ... فقواه الجسمانية لا تكفى لاستمراره فى الحياة إلا إذا أمده المجتمع بالعون ... كما أن قواه العقلية تكون فى المعتاد ضعيفة :

لكنه يجد من معونة المجتمع المتمثل فى عطف أبويه ما يكفيه وما يعينه على خوض بحور الحياة بثبات وقوة .. هذا الانسان بعد أن ينضج عقليا .. لا نستغرب إطلاقا أن يسأل نفسه عن مصدر هذا الحنان الدافق الذى كان فى صدر أبويه نحوه وهو صغير .. والذى منحه القوة على الصمود أمام تحديات الحياة رغم أنه لم يكن يملك من القوة ما يكفيه لمغالبة تيارات الهلاك .

فاذا ما سأل الانسان نفسه هل والداه قد فكرا وأمعنا التفكير قبل أن

يقروا ضرورة مده بالعطف والرعاية . . كقرار عقلاني في مقصود . . لذاته
وبالطبع سيعلم أن والديه فعلا ذلك بإيحاء خفي خارج عن إرادتهما .. تماما مثلما
تعطف الأنثى في الطيور والوحوش على أبنائها . . وهو إذا ما قرر ذلك فانه
يؤمن تلقائياً بوجود قوة عليا قد غرست هـذا الايحاء الخفي بالعطف والحب
والرعاية في نفس أبويه أو في نفوس الأحياء جميعا . . ويكون مستعداً
للإيمـان بالله سبحانه وتعالى والتمسك بدينـه كل تلك التساؤلات قد تتم في
العقل الظاهر . . ولـكن بطريقة موضوعية وسليمة وقد تتم فيما يسميه علماء
النفس بالعقل الباطن أعني الإحساس الخفي . . ويؤدي لا شعوريا إلى إيمـان
الانسان وثقته بالله . . ومع مرور الأيام نجده منفذاً لأحكام دين الله بكل
ثقة وبكل اطمئنان ونجـده يدافع عن الدين بحياته ويبذل في سبيل نصرته النفس
والمـال . . وكل ما هو غال وعزيز .

وقد يتأمل الانسان في حاله وكيف يتبدل ضعفه قوة وخوفه أمنا وكيف
تكونت لديه نظرة عقلانية إلى أمور حياته . . ثم قد يسأل الانسان نفسه عن
سر ذلك . . وكيف صار إلى ماصار عليه وقد يعرف الانسان شيئا عن طبيعة
جسمه ودقة صنعه وكيف أن أعضاءه تعمل بانتظام وأحكام وبدون أن تبلى أو
تصدأ . . . وكيف أن جسمه يعمل بترابط . دون أن يفكر في ذلك أو يقحم
نفسه في عمل جسمه أو يرشده إلى ما يجب أن يكون . . ثم قد يسأل نفسه عن
من أحكم له بنيانه وعن من أوجد في جسمه هذا الترابط وهذه القوة .

وبالطبع أنه لا بد أن قوة عليا قد أوجدت هذا الترابط وهذا الانسجام .
ويكون مستعداً لحمد هذه القوة وشكرها على ذلك . . . كل ذلك أيضا قد يتم
بصورة ظاهرة وقد يتم كاحساس خفي يتكون في العقل الباطني ولـكنه يؤدي
في الحالتين إلى إيمان قوي بالله الواحد الأحد العظيم .

ولقد تتكون لدى الانسان فكرة عن نفسه . . . فى أى مجال من مجالاتها فهو حين يتأمل شكله الظاهرى يجد شكلا متناسقا فى أحسن تقويم حيث يجد قامة مستقيمة . . وعينان جميلتان يمنحان وجهه كثيرا من الجمال والرونق .. فوقهما مباشرة .. شعر خفيف وبينهما أنف يتنفس منه الهواء . . ويشم به الروائح . . وتحته فم يزينه أسنان بيضاء وهكذا يجد من شكله الانسانى المتناسق ما يحمله على القطع بأنه لا بد من إله حكيم فنان هو الذى صوره وصور بنى جلدته على شاكلته ... وعلى هذه الصوره الجميلة .

وهو حينما يتأمل الجهاز الدموى الموجود فى داخله يشعر أيضا بالقدرة والاعجاز تجاه من صنع هذا الجهاز الدورى . . إذ أنه يشاهد قلبا دقاقا نابضا يدفع الدم فى أوعية وشرايين وفى دورة كاملة متناسقة . . . يساعدها ويتمم عليها قلوب لمقاومة تضخ ماء الحياة إلى الأوعية مرة أخرى . وهو يعلم أن كل مليمتر مكعب من دمه يحتوى ملايين الكرات الدموية الحمراء والتى تحمل الأكسوجين بأمانة . . . من الوسط الخارجى أو من الرئتين إلى جميع الخلايا والأنسجة الحية فى الجسم البشرى ولقد يزداد عجبه حين يعلم أن هذا الدم يحوى أيضا ملايين من الكرات الدموية البيضاء التى تطارد الأجسام الغريبة عن جسمه وتقضى عليها قضاء مبرما . . كما أنها تقاوم الأمراض المختلفة مقاومة مستميتة . وتحاول ما وسعها الجهد أن تقضى على أطوارها حينما يتأمل ذلك بعقل نقى . . خال من جراثيم العاطفة أو من الوهم والخرافة لا بد وأن يثبت لديه أن الذى أوجد كل هذا إله قادر عليم يقدر فيحسن التقدير . . . ويدبر فيحسن التدبير . وهو حينما يتأمل كيف كان ضعيفا عند وروده إلى الحياة الدنيا ثم صار فيها قويا ثم يرتد فى الكبر ضعيفا كما كان . . . لا بد وأن يستفيد من ذلك العبرة البينة والموعظة الجميلة .

ولقد يجد لزاما عليه أن يعتقد أن الطعام الذى يتناوله هو السبب المباشر لنموه وقوته وذلك ما يجعله يطيل التأمل والتفكير ، ولو لا شعوريا . . . كيف استطاع جسمه أن يحول المواد الميتة إلى مواد حية ويضفيها إلى تركيبه الحي ويزداد بها طولا وعرضا وقوة .

ولقد يتأمل فى جهازه الهضمى فتأخذه الروعة أى مأخذ . . . فله لسان يتذوق به الطعام وأسنان مختلفة الأشكال والانواع تطحن هـــذا الطعام وتمزقه . . . ومعدة يهضم فيها الطعام ويتحلل إلى عناصره الأولية . . . وأمعاء تتم هذا العمل على خير وأحسن الوجوه ولقد يعجب الانسان حينما يعلم أن فى تجويف أمعائه مخلوقات حية ودقيقة تنتج فيتامينات لا غنى للانسان عنها ولقد يتساءل الانسان من هذا الذى أوجد هذه المخلوقات الدقيقة . . لصالح الانسان وكضرورة من ضروريات حياته وحينئذ يتبين تماما أن قوة عليا قد أحكمت صنع الجهاز وجعلت جدران الخلات دقيقة للغاية حتى يمكن أن تسمح للغذاء المهضوم بالانتقال من فراغ الجهاز الهضمى إلى داخل الجسم أو إلى مادة الخلايا الحية ومن ثم يكون مستعدا للايمان بالله . . . ويزيد إيمانه قوة ... كلما أمعن عقله ... ونقى جوهره .

ولقد يتأمل فى جهازه العصبى . . . سواء من حيث الظواهر السطحية التى يراها طافية على سطح الواقع . . . أو من حيث الحقائق العلمية التى يراها أولئك الذين يتعمقون فى الواقع إلى أعماق البحث العلمى .

فلقد يجد غريباً أن يستسلم فى الليل لنوم لا يسمع أثناءه صوتا . . . ولا يرى خلاله شيئا ... ولقد يمر بمر به مخلوق أو كائن حى ... وانه يؤذيه ذلك المخلوق ويسبب له الضرر دون أن يحس هو شيئا أو يتنبه إلى شىء .. ولقد يجد غريبا أن يرى فى نومه أحلاما قد تكون سعيدة سارة وقد تكون مزعجة .

مليئة بالمنغصات ولقد تلهمه أحلامه بفعل أو سلوك معين قد يكون فيه له نفع كبير ...

ولقد يجد له عقلا مفكراً ... ونظره عقلانية إلى الأمور قبل أن تخيب ... فيمن أن الذى جعل مضغة من اللحم تفكر لا يمكن أن يكون إلا إله قوى قادر عليم ... وقد يكون ذلك الفكر كله ظاهراً ... وقد يكون متخفياً ... ولكنه فى الحالين فكر ... وليس انقياد أعمى أو تقليد ممسوخ ... إذ أن ذات الانسان ومستقبله الحقيقى أهم من أن يتركه التقليد الممسوخ أو الانقياد الأعمى .

ولقد يبهره الجمال ... جمال الكون وجمال مخلوقات فيه ... جمال هذه الزهرة المتفتحة يفوح منها عطرا وشذا ... جمال هذه الاشعة الذهبية لشمس الأصيل وهى تنعكس على الماء ... جمال الخضرة الباسمة فى الربيع ... والماء يلاحبها ، ويجوس خلالها جمال هذه السماء الصافية ... وقد انعكس صفاؤها على وجه الماء ... أو جمال الوجوه الانسانية التى قد تبهره جمالا ... بل قد تفتنه وتسحر لبه وتجعل الليل له صديق فكر والنجوم له رفاق رحلة طويلة لا تنتهى ... وحينما تعصف بنفسه نسمة الجمال فانه يصيح وقد دق إحساسه معظما ذلك الذى أوجد الجمال ... وموحدا وشاكرا وعابدا .

ولقد يرهبه العنف ... عنف هذا الكون الفسيح الجميل ... فلقد يهيج البحر فيتحول من كائن جميل إلى كائن عنيف كأقصى ما يكون العنف ... ولقد يبدو هذا البحر قاسياً رغم جماله ... قاتلا رغم ما يبدو من رقته ... ولقد يبتلع أخوة له من بنى جلدته ويذيقهم كأس المنية المر بين أحشائه .

ولقد يقصف الرعد ويبرق البرق ... حتى لتنزل من السحب ناراً

تحرق الشجر الأخضر حتى ليصير حطاما وتقتل كل من تلمسه أو تقترب منه من أخوته ومن بنى جلدته . ولقد يصيبه الزعر حينما يرى السماء وقد تلبدت بالغيوم حتى صارت كبحر هائج .. ويرى البرق يبرق بين ثنـاياها .. ويسمع قصف الرعود .. ولقد يفكر وهو فى كل هذا فيمن يمكن أن يلجأ إليه .. وأن يستغيث به .. فلا يجد الامن أو جده على هذه الحياة وحينئذ يؤمن أن الذى خلقه على هذه الحياة هو الله الواحد الأحد .. هو القوة العليا فى الكون والمسيطر على هذا الكون ..

ولقد يجد آباءه وأجداده من قبله قد ماتوا وواراهم تحت التراب بيديه أو بايدى بنى جلدته من الناس . . ولقد يجد فى كل يوم أخاله يموت ويثوى تحت التراب .. ومن هنا يعز عليه أن يذهب هباء ويعز عليه أن تكون كل قيمته على الأرض مايستطيع احرازه من لذة لن يكون ختامها إلا مرارة الموت وألمه .

ولقد يجد الموت يتربص به فى كل خطوة . تحمله الميكروبات والجراثيم ويحمله سلاح البغى والعدوان . ويحمله الحظ العاثر ولا يمكن أن يجد ما يؤمن به نفسه من الموت إلا أن يعتقد أنه سيعود إلى العالم مرة أخرى .. ليفوز باجر ما قدمت يداه . ولقد يجد أحبائه قد فارقوه وماتوا .. وحينئذ يكون عزاءه على هذه الدار أنه وهم سيعودون مرة أخرى .

وهو يؤمن فى كلا الحالين أنه لا بدله من خالق لأن الشىء لايمكن أن يخلق من لاشىء .. وأن هذا الخالق العظيم وهو الذى سيرجعه إلى الحياة . مهما طال الزمن بعد موته .. فذلك وعده رسل الله لايخلق الميعاد .

وكما ذكرت آنفاقد يكون كل هذا تفكير بوهى فنقول عنه أنه تفكير ظاهر .

وقد يكون باللاوعى فنقول عنه أنه تفكير باطن ، لكن كل منهما تفكير وليس انقياد أعمى أو تقليد ممسوخ . أما أولئك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فإنهم يحتقرون فطرتهم ، أعنى يحتقرون تفكيرهم الباطن أو الظاهر .

وخلاصة القول أن الايمان بالله واليوم الآخر تقره النفس الانسانية والعقل والضمير الانسانى إقراراً تاما وأيضا إقراراً تلقائياً بصرف النظر عن مدى ذكاء العقل عند ذلك الانسان أو مدى ثقافته ، فالايمان بالله سبحانه وتعالى هو مظهر من مظاهر الانسانية نفسها أو هو مقوم من مقوماتها ، وهو أيضاً عامل من عوامل تثقيف الانسان وتعليمه ثم هو أيضاً أساس لنهضته فى حياته كلها ، وأساس لاحساس بالسعادة والامل وبالامن والسلام .

اللانهائيات فى الفكر والواقع

فى هذا العالم الذى نعيش فيه ، وفى عصرنا هذا ، ظهرت لغة الارقام واحتلت مركزاً هاما فى الفكر الانسانى ، كوسيلة دقيقة والقياس والتقدير فى شتى مجالات الحياة ، ولقد استخدمت الارقام فى العصور السالفة ، بيد أن استخدامها كان بسيطا ، وفى حدود ما تقتضيه ضرورات الحياة ، كعد الايام التى مضت على حادث هام ، أو كعد ما يملكه فرد من النخيل أو من الماشية :

أما الآن ، وبعد أن تقدمت وسائل القياس وتحسنت أساليبها ، فقد استخدمت الارقام فى مجالات ضخمة ، وفى مهام دقيقة ، وعلى سبيل المثال فقط ، استخدمت الارقام فى تحديد المسافة بين الشمس والارض ، وأيضا بين نواة الذرة ، واحد الكتروناتها ، وكما نعلم ، المسافة بين

نواة الذرة وأى الكترون تابع لها صغيرة جداً تقدر بوحدة الانجستروم وهى واحد على مليون من المليمتر وهى بالطبع مسافة محدودة أو كمية محدودة .

أما المسافة بين الأرض والشمس فهى مسافة كبيرة جداً تبلغ ٩٦ مليون ميل ... ورغم ذلك فهى مسافة محدودة أو كمية محدودة .. وهناك نجوم تبعد على الأرض بمسافة مائة سنة ضوئية .. ومع ذلك فهذه المسافة تعتبر مسافة محدودة .

وقد وقر فى أذهان الناس أن كل شىء له أول وآخر .. وله بداية ونهاية مهما بلغ بعده ومهما بلغت غايته .. ولقد يحق علينا أن نسأل ونحن فى عصر الأرقام .. هل هناك شىء ليس أول ولا آخر .. أو وليس له بداية ونهاية .

وقبل أن نبحث هذا السؤال .. أود أن نتأمل قليلا المعنى الكبير الذى ينطوى عليه . فهذا النجم الذى يبعد عنا مليون مليون ميل نعتبر المسافة بيننا وبينه كمية محدودة .. وهذا النجم الذى يصلنا ضوءه بعد مائتى عام تعتبر المسافة بيننا وبينه كمية محدودة .. وإذا فنحن نعنى بالكمية اللانهاية .. هذه الكمية التى لا تنتهى أبداً ولا يمكن قطعيا أن نعبر عنها بالأرقام .. مهما تخيلنا .. ولقد نجد واقعياً أن مسافة بليون بليون بليون ميل .. مسافة لا شك كبيرة وهى غاية فى الكبر لكنها فى العرف اللانهائى كمية محدوده وأى كمية محدوده تعتبر صفرا بالنسبة للكمية اللانهائية .. فاذا تساءلنا هل إذا تخيلنا أن الكرة الارضية مجوفة مثل كرة القدم .. ثم ملئناها تماما ببطاقات صغيرة .. مكتوب على كل بطاقة بليون بليون بليون ميل ... هل يقترب مجموع هذه الاعداد من العد اللانهائى الذى نقصده ... والاجابة على ذلك تكون أننا لو كررنا هذه العملية مليون مره أو حتى ألف بليون مره فاننا

لن نحصل إلا على كمية محدودة ، تساوى صفراً إذا ما توازنت بالكمية اللانهائية ، فما نقصده بالكمية اللانهائية ، كمية لا يمكن أن تكون لها نهاية ، كما لا يمكن إطلاقا أن تزيد النسبة بين أى كمية محدودة وبينها وعن الصفر ، أو اللاشيء .

وحينئذ يعود سؤالنا من جديد : هل استطاع العقل البشرى أن يتخيل كمية لا نهائيه وأن يبرهن بالدليل القاطع أنها لا نهائية ، وهل هناك فى الواقع الذى نعيش فيه كمية لانهائية ، تنطبق عليها شروط ومواصفات ، الكميات اللانهائية ، ماهى نتيجة العملية الحسابية واحد على صفر ، أو بمعنى آخر كم صفرا فى الواحد الصحيح ، ولقد كان من الممكن أن نقول كم ربعا فى الوحد الصحيح وتكون الاجابة أربعة أو نقول كم عشرا فى الواحد الصحيح فتكون الاجابة عشرة أو نقول كم واحد على مائة فى الواحد الصحيح وتكون الاجابه مائة أو نقول كم واحد على مليون فى الواحد الصحيح فتكون الاجابة مليون أو نقول كم واحد على بليون فى الواحد الصحيح فتكون الاجابة بليون وهكذا كلما قلت الكمية زاد المقدار حتى نأتى إلى كمية كبيرة جدا مثل واحد على $\frac{1}{1..........}$ تساوى ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ .

وحيث أن الأصفار على يمين العلامة العشرية هى عدد الأصفار التى أمام الواحد الصحيح ، فهكذا تؤول الكمية واحد على صفر إلى كمية لا نهائية أما فى الواقع الذى نعيش فيه فان الذى نطلق عليه مقدارا لا نهائيا لابد وأن يكون من الواقع وليس من الخيال .

بالنسبة للواقع الذى نعيش فيه والذى سنثبت أننا نتلمس فيه بالحواس

كمية لانهائية فأننى أذكر أن الوجود الذى نعيش فيه ككل يعتبر مقدارا لانهائيا من حيث الحجم إذا لايمكن أن يكون لهذا الوجود بداية كما لايمكن ابدا أن يكون له نهاية فنحن نعيش على بقعة صغيرة من هذا الوجود هى الأرض التى يغلفها غلاف غازى ثم على بعد منها نجد شمس وكواكب المجموعة الشمسية ثم على بعد آخر قد نجد نجما مثل الشمس تدور حوله مجموعة من الكواكب مثلما تدور الأرض حول الشمس وكلما بعدنا فى الفضاء الجوى كلما شاهدنا نجوما أو كواكب لايستطيع الانسان عدها ولقد نسأل أنفسنا ماهو الجدار الذى يحد فراغ الكون بحيث يمكننا أن نعتبره نهاية هذا الكون الذى نعيش فيه وبالطبع لايمكن أن يكون جدار أى جدار ينتهى عنده الكون أو نحكم به على الكون بأنه كمية محدودة إذ أن كل مايمكن أن نتخيله جدار هو فى الحقيقة من مقومات هذا الكون فالمواد الصلبة بكل أنواعها من مكونات الكون والسوائل بكل أنواعها والغازات وكذلك اللاشىء أو الفراغ من مكونات هذا الوجود الذى نعيش فيه وإذا ماغادر الانسان مجال الجاذبية وأخذ يسبح فى الفضاء الكونى فإنه لن يصل إلى نهاية ولايمكن بحال من الأحوال أن يصل إلى نهاية . فهو قد ينزل خفيفا على كوكب الزهرة ثم يغادرها إلى زحل أو عطارد وقد يغادر مجموعتها الشمسية إلى أى نجم آخر ولكنه لن يصل إلى نهاية .

وإذا ماتخيلنا أن هذا الرجل يندفع بأضعاف سرعة الضوء وفى اتجاه واحد فانه لايمكن أيضا أن يصل إلى نهاية . . ومهما كانت فرصته من مسيرة الزمن قد تمضى مليون سنة أو حتى بليون سنة ولكنه أيضا لن يصل إلى نهاية ويمر عنده آلا نهائيا من السنين ولكنه أيضا لن أن يصل إلى مانهاية ولايمكن أن يصل . ولعل من الطريف أن نتصور رجلا يعلو فى الفضاء فى اتجاه واحد

بغيه الوصول الى آخره . وأنه يعدو بسرعة تساوى مليون مرة قبر سرعة الضوء . . ولعل من الطريف أيضا أن نذكر أن هذا الرجل يعد ومن قبل أن توجد الارض . . مازال يعدو الى الآن . . هل يصل هذا الرجل الى نهاية الفضاء . . والاجابة على ذلك كلا . . اذ أن الفضاء لانهاية له . . فاذا ما تساء لنا وهل يمكن بعد بليون سنة . . والاجابه كلا لايمكن على الاطلاق اذ أنه يعدو خلف نهاية غير موجودة على الاطلاق ولايمكن أن تكون موجودة حتى فى خيالنا أو تصورنا ومن هنا ندرك أن هناك فى الواقع الذى نعيش فيه مقدار لانهائيا هذا الفضاء الذى يسبح فيه كوكبنا الأرضى . منذ خلق .. أو منذ أعلن انفصاله عن الشمس كما يقول العلماء .

والفضاء يحتوى أيضا على كميات لانهائية من المادة . . وقد يبدو هذا الأمر غريبا .. وقد يقال لى : أن كمية مادة الارض محدودة . وكمية الشمس محدودة . . و كل نجم كميت محدودة ومجموع الكميات المحدودة تعتبر كمية محدودة . . واذا كانت الكميات التى يحتوى عليها كوكب الأرض كمية محدودة . . وكذلك كميات الاجسام التى يحتويها الفضاء اللانهائى محدودة . . فان عدد النجوم و الكواكب والأقمار التى يحتوى عليها العالم عدد لانهائيا ذلك أن النجوم والكواكب والاقمار منشورة فى رحاب الكون أو فى الفضاء اللانهائى . . وفى كل ما بقعة من هذا الفضاء نجد نجما أو كوكبا . . وهذا مايثبت باستحالة عكسه . . على طريقة فرويد الاثباتية التى يعلن فيها و او افقه فى هذا الاعلان أن الحقيقة هى تلك الحقيقة التى تفترض أولا بطلانها ثم تثبت بالبرهان العقلانى بطلان هذا البطلان . وهو يقصد ما يردده المثل العامى من أن نفى النفى اثبات . . و بنفس هذا المنطق . . نحن نفرض أن هناك حد فاصل كل ما بعده يخلو من المادة . . ولكن العلم والعقل

يؤكدان لنا أن هذا الحد باطل وغير موجود . وبالتالى يثبت بطلان هذا الافتراض الأخير أو يثبت بطلان البطلان وتثبت معه الحقيقة القائلة بأن الكون لانهائى فى حجمه ولا نهائى أيضا فى كمية المواد التى يحتويها ، وهذ ما يجب أن يعيه كل حى يدرك ، ثم بعد ذلك يفكر ليدرك حقيقته فى هذا الكون و حقيقة مبدعه ومبدع الكون معه وفى ذلك فقط تكمن قيمة الحياة و أهميتها .

الله . . . وكيف لم يبدأ . . . ؟

لا شك أن العالم الذى نعيش فيه عالم هام بالنسبة لنا ، إذ أنه يحتوينا داخله ، ويحتوى معنا قدراتنا وقيمنا ومستقبلنا الحقيق .

كما أنه لا يمكن بأى حال أن نجد فى رؤوسنا عقول تفكر وتدرك وتعى ثم لا نستخدم هذه العقول فما يجلب لنا النفع ويدفع عنا كل ضرر ، وما من شك فى أن الحاضر السعيد شىء هام يسعى الانسان لتحقيقه بكل ما أوتى من قوة العقل والتفكير ، كما أنه ليس هناك أدنى شك فى أن المستقبل الحقيق شىء هام ، يجب على الانسان أن يسعى لتأمين نفسه فيه بكل ما يملك من مقدرات .

وكما ذكرت سابقا فان النظرة العقلانية إلى العالم هى ضرورة واجبة تفرضها علينا طبيعة وجودنا فى هذا العالم ، وليس شيئا نستطيع أن نختاره أو نرفضه تبعا لهوانا أو مزاجنا الشخصى ، وأول ما يسترعى أنظارنا فى هذا العالم أو أهم ما يسترعيه ، تلك الحقيقة الهامة التى بينتها بالتفصيل فى الفصل السابق ، وهى أن العالم الذى نعيش فيه عالم لا نهائى من حيث حجمه كما أنه لانهائى من حيث كمية المادة التى يحتويها .

وإذا كانت النظرة العقلانية إلى العالم ومن فيه قد أملت علينا أن نؤمن

بوجود إله قوى قادر ، خلق تلك المواد وأخضعها لنظام دقيق فلا بد بداهة أن نعلم نحن أن هذا الاله القوى الذى خلق كميات لا نهائية من المادة فى فضاء لا نهائى ونظم هذه المادة فى الفضاء اللانهائى وفق أسس وقواعد تنظيمية ، معينة لابد بداهة أن نعلم أنه هو أيضا لا نهائى فى قوته وفى عظمته وإذا كنا نعتبر أن حجم الفضاء مقدار لا نهائى ، فان الاجسام التى يمكن أن تكون منثورة فيه ، أيضاً مقدار لا نهائى ، وتكون كمية المادة التى تحتويها النجوم وتلك الأقمار مقدار لا نهائى .

وهذا هو المهم ، بل هو أهم شىء يجب على الانسان أن يعتبر به فى هذه الحياة ، إنك أيها الانسان تعيش فى كوكب الأرض المعلق فى الفضاء وحولك فى هذا العالم كميات لانهائية من المادة أوجدها الخالق العظيم من لا شىء ، ثم أخضع ما فيها من جماد لنظم معينة وجعلها تسير على قواعد وأسس ثابتة . ثم أوحى وألهم الغرائز فى الاحياء من خلقه .

ونحن نؤمن به ، لان النظرة العقلانية إلى الكون وإلى دقائقه تجعلنا نعلن به يقينا ، حتى لقد نود أن نفنى الحياة بكل لحظاتها فى طاعته ، وحتى لنود أن نتحول كلية إلى طاقة من الشكر ومن الحمد والثناء الجميل لربنا ومولانا .

وفى الايمان بالله ربنا حياة ، وسعادة الحاضر ، وأمن المستقبل الحقيقى الذى يجب إن ننظر إليه باهتمام وعناية .

ولقد نحمد المولى القدير ونشكره على أن أوجدنا من العدم وعلى أنه أخضع العالم المادى من حولنا لاساسات ونظم تتيح لنا الحياة الوادعة السعيدة . ولكننا نحمده جل وعلا أكثر وأكثر لانه هدانا إلى نوره ، ففتح بذلك طريق السمو بعبادته ، طريق الشرف بالتذليل إليه ، وإلى ما لا نهاية ، ولقد أطيل التأمل فى كل ذلك دون أن أمل منه ، فهذه الصورة الفرحة إلى أيقن

ويتيقن بها عقلنا الانسانى وآمن بها ، ورآها أمام عينه ولمسها الانسان لمساً وبكل حواسه .

كميات من المادة موجود فى هذا الكون ليس لها نهاية ، وتعجز الأرقام عن تحديد كميتها ، ونحن أيضا مادة تعيش كجزء محدود بالنسبة للكل اللانهائى .

ونظرتنا العقلانية إلى العالم تعلن لنا أنه لا يمكن أن توجد ذرة واحدة من المادة من لا شىء وتعلن لنا أن هناك خالقا قويا كبيرا قد خلق كل هذه المواد . وأوجدها من العدم .

كما أن ما نجده من نظام ثابت تسير عليه جمادات الكون وموادها الميتة يؤكد إيماننا ويعززه إذا أنه يجعلنا نعتقد أنه لابد من وجود قوة عليا قد أخضعت هذه الجمادات لأسس ونظم وقواعد ثابتة .

ولقد نجد الغريزة فى الاحياء من خلق ربنا جل وعلا ، إرادة خفية تدفعهم إلى أشياء نافعة أو ضرورية لوجود الحياة على هذا العالم ، فيشتد إيماننا بالله تعالى ، حتى يبلغ من القوة أقصاها ، أو نحن نتمنى أن يكون كذلك .

ولقد أسمع من كثير من الناس منكراً من القول وزوراً وباطلا وبهتانا وإثما مبينا ، فهناك منهم من يقول : آمنا بالله هو هو الذى خلق الكون ، وأنت تقول أنه ما من شىء يوجد من العدم ، وإذن فمن هو الذى أوجد الله من العدم إذا كان الأمر كذلك .

ولا أحب أن أحكم عواطفى فى الامر ، وأن أجيب هؤلاء إجابة منطقية . مستخدما عقلى الذى وهبنى إياه خالق العظيم ، ومستوحيا من نظرتى العقلانية إلى الأمور ، وإلى العالم ومن فيه . ولقد يكون من الضرورى أن تطرح على

بساط البحث سؤالاً هاماً ، وصريحاً هو : بدأ الله ، وهل بدأ منذ ألف سنة ، أو منذ مليون سنة ، أو حتى منذ ألف مليون سنة .

وهل من الممكن أن نتخيل لحظة مرة فى مسيرة الزمان لم يكن فيها الله موجوداً ثم بدأ بعد مرورها ، هذا هو جوهر الحقيقة وهو الاهم فى وجهة نظرى والذى يجب أن نفكر فيه قبل أن يضل وقبل أن نجهل ، والحقيقة التى يجب أن يدركها كل إنسان أن الله جل وعلا لم يبدأ ولن ينتهى ولا أقرر ذلك بمزاجى . ولكنها الحقيقة التى تظهر نفسها بوضوح وتبرهن على وجودها بما لا يدع للشك مجال وأود أن تدرك الانسانية جمعاء أن قيمة الانسان الحقيقية هى فى كونه لا ينتهى أبداً ، أى أنه يخلد ، وإذا كان الانسان ينتهى فانه لاقيمة مطلقا لكل جهوده التى يبذلها فى حياته ، ولكل ما يحققه فيها .

ولكننا نؤمن بأن الانسان يخلد ولا ينتهى بمعنى أنه يحيا بعد موته ثم يعيش إلى ما لا نهاية ، ولقد يقول لى قائل إن الخلود أمنية تمناها الانسان منذ الأزل ، وحققتها له رسالات السماء لكنه ما فتىء يشك صدق هذه الرسالات ، ويشك فى صدق تحقيق هذه الأمنية .

وأقول ، أنه بالرغم من أن العالم فى عصرنا هـذا يقاسونه ويعانون معاناة شديدة من المرض والجوع والخطر ، وبالرغم من أن رجالات العلم يخوفون الانسانية من مجاعة شديدة لا تبقى ولا تذر ، وبالرغم من ذلك فان كثيراً من الناس يدعى أنه يمكن للانسانية ما لا نهاية ؛

وأود أن أذكر أنه اذا كان الانسان يأمل فى الحياة إلى ما لا نهاية رغم أنه يدرك أن عوامل الفناء فى هذه الحياة قد انتصرت على كل من سبقه من البشر ، وأنه حتى ولو انتصر على عوامل الفناء فانه سيموت حتما ، إذ أن

موارد العالم الغذائية تكاد تضيق عن أجيال البشر . . فكيف لايحق لنا أن نتخيل ان الله الذى نؤمن به . والذى سير جعنا أحياءا بعد الموت سيخلدنا فى الدار الآخره لنعيش الى مالانهاية .

ولا يصعب علينا حينئذ أن ندرك أن كل المخلوقات قد بدأت وأن الانسان قد بدأ ولن ينتهى . . وأن الله الذى خلقه لن ينتهى وهو لم يبدأ

وكذلك فاننى استطيع أن أقول بثقة واطمئنان أنه مادام كل شىء فى هذا العالم قد بدأ . . فلابد من وجود آله خالق يخالق هذه القاعده ويرتفع عنها لم يبدأ . . ولم يخلق .

ذلك أننا لابد أن نؤمن بأن الله وهو سر هذا الوجود والقوه العظمى فيه لابد أن نؤمن أنه لم يبدا ذلك ان الله الذى خلق كميات لانهائية من المواد وعنده قدره لانهائية على الخلق لابد ان نؤمن انه مخالف لطبائع الامور التى اعتدنا نحن عليها .

كذلك فنحن نؤمن فى هذا العالم ان الماده لاتفنى ولا تستحدث ونعتبرها بديهية . . ونعتبر أنه من أبعد المستحيلات أن ينتج انسان أو أى كائن من اللاشىء شىء وبدون وسيلة لكننا مع ذلك نؤمن أن الله أوجد من اللاشىء مادة وبدون وسيلة . . وليس الأمر قاصر على ذلك بل نحن نؤمن ان الله خلق من اللاشىء كميات لانهائية من المادة .

وهذا بالطبع مايعجز الانسان حتى عن تصوره أو تخيله . فالله جلت قدرته قد حول بقدرته وبدون عناء . . اللاشىء ان الفراغ المطلق إلى كميات مادية لانهاية لها . . ولا تستطيع الارقام عن تعبر عنها . . أو عن حجمها .

ذلك يدل دلالة قاطعة على أن ذلك الاله الكريم مخالف الحوادث ولما جرت عليه عاداتها وأنه لم يبدأ . . وان ينتهى .

فالله الذى خلق كميات لانهائية من المواد .. هو أيضا لانهائى فى قدرته . لانهائى فى عظمته لم يبدأ ولن ينتهى و البدأ والانتهاء أشياء عهدناها فى العالم و فى طبيعة الاشياء . فمهما كان النهر طويلا . فلابد له من منبع ومصب . ومهما كان البحر متسعا فلا بدله من حدود لـكن الله مولانا أجل من ذلك وسبحان الله عما يصفون

الله وكيف لم يخلق . ؟؟

وأعود الآن إلى السؤال العجيب الذى يردده أناس يزعمون أتباعهم للمنطق الصحيح ولـكل ما يستقيم مع طبائع الأمور .. ويزعمون احتراما لانسانيتهم وتقديراً لها .. وهم فى الواقع على النقيض من ذلك أنهم يقولون : آمنا بأن الله هو الذى خلق الكون .. وأنت تقول أنه مامن شىء وجد من العدم . وإذا فمن هو الذى أوجد الله من العدم إذا كان الأمر كذلك .

وأقول لهم يا أدعياء المنطق آمنتم بأن الله هو الذى خلق الكون .. ومن فيه من الاشىء .. وأنه مخالف للحوادث .. فكيف يغيب من فطنتكم أنه أيضاً لم يخلقه أحد لأنه جلا وعلا مخالف للحوادث .. ولـكل ما عهدناه من طبائع الأمور .

فعهدنا بطبائع الأمور أن لكل شىء خالق أو صانع . لكن الله جل وعلا مخالف لما عهدناه من طبائع الأمور .. وليس له خالق أو صانع .. ثم كيف نقر أن الله يخلق من العدم مادة وكميات لا نهائية منها وهذا مخالف لطبائع الامور ولما عهدناه عليه منها . إذ أنه ما عهدناه من طبائع الامور إن الانسان أو أى كائن حى لا يستطيع أن يوجد من اللاشىء شىء وبدون وسيلة . لـكن الله العظيم جلت قدرته خالف ما عهدناه من طبائع الامور وأوجد من اللا شىء أشياء عظيمة .. ومواد لا متناهية وبدون أية وسيلة أي بقدرته وحده كيف

تقر ذلك ثم لا تقر أن الله مخالف لطبائع الأمور من حيث أن لكل كائن حى صانع ولكنه جل وعلا ليس له خالق أو صانع ، ثم أنه مما يستقيم مع المنطق الصحيح أن الكائنات كلها قد أوجدت وخلقت فلا بد أن يكون هناك من خالف القاعدة العامة من حيث أنه لم يوجده أحد ويكون هو الذى أوجد الكائنات جميعها من طير وسمك وحيوان وإنسان .

ثم أقول إننا نؤمن إيمانا كاملا بأن الله الذى خلق الكون ومن فيه لحظة زمنية ، لم يبدأ ومعنى ذلك أنه لم تكن هناك على الاطلاق أية لحظة زمنية ، كان الله فيها غائباً ، وبمعنى آخر ، أنه جل وعلا موجود فى كل زمان ، ولم يكن هناك زمان يخلو من وجوده جلا وعلا .

وإذا فليس هناك على الاطلاق مكان منطق لأن يسأل الانسان عن خالق خالقه ، ذلك أنه لم يبدأ فكيف تسألنى من خلقه أو من أبداه .

أقول لكم : يا دعياء المنطق أنه لم يبدأ على الاطلاق ، وتصرون على سؤالى من أبداه أن هذا لشىء عجاب أنكم تعبدون إلهاً خلقكم جميعاً من لا شىء ، وخلق معكم مواد العالم اللامتناهية كمية وحجما ومقداراً من لا شىء كما نضم أجسادكم ، وجعلها تنمو ، وخلق فى هذا العالم لكم فرصة عادلة للحياة كما جعل وخلق فيها فرصة أكيدة للموت تعيشون ما شاء لكم الرحمن ثم أنتم تموتون .

كما أوحى إليكم ككائنات حية ، غرائز وإلهامات ، تدفعكم دفعاً إلى المحافظة على وجودكم إنكم تعبدون إلها لا نهائيا فى قدرته وفى عظمته (مخالف) للحوادث لم يبدأ ، ولن ينتهى ، فسبحن الله عما يصفون ، وهناك أيضا من يغلو فى الضلالة والاثم ، سائلا أو متسائلا أو ليس من المحيل أن يكون هناك

إلهان أو ثلاثة قد اشتركا فى خلق الكون وتشييده ، من العدم وهم جميعاً يخلقون الحوادث ، وعلى درجة عظيمة من القوة والعظمة ، وأقول لأدعياء المنطق مرة أخرى : لا تسرفوا فى الضلالة والاثم ، أنتم تؤمنون بأن هناك قوة لا نهائيه حية قد أوجدت هذا الكون ومن فيه ، هى قوة الله جل وعلا وأنتم قد أدركتم إن ما نعنيه نحن بأن هذه القوة لا نهائية إنها قوة لا نهاية لها وهذا أيضاً يخالف الحوادث إذ أننا نؤمن أن قوة الله ليست كنسبة محدودة ولكنها كنية لا نهائية بمعنى أن الأرقام تعجز عن تقدير أى نسبة منها مهما كانت ضئيلة . وبمعنى أن الأرقام مهما كانت كبيرة لا تمثل منها إلا الصفر وإذا سألتم . لماذا . نعتقد نحن ذلك ، لكان جوابى لأن هذه القوة قد أوجدت من اللاشىء شيء أو مادة حية ، وهذا فى حد ذاته ما لا يستطيع الاتيان بها إلا من يتصف بصفة خارقة هى قوة اللانهائية ، وعدم البدء وعدم الانتهاء ، و إذا فالله الذى يخلق كميات لانهائية من المادة . لم يبدأ ولن ينتهى ، ذو قوة لانهائية وعظمة لامتناهية .

وأقول لأدعياء المنطق : مامعنى أن نصف الله ربنا بالقوة اللامتناهية معناه أن الله يملك فى هذا الكون اللانهائى قوة يضيق عنها الكون النهائى وأعنى بذلك أن قوة الله جل وعلا ليست كمية محدودة ولكنها كمية لا متناهية .

تملك هذا الكون اللامتناهى فتسيطر عليه وعلى من فيه سيطرة كاملة . وأقول لأدعياء المنطق إنكم تدركون أن الكون لا نهائى ، وأن أى قوة محدودة تعتبر صفرا بالنسبة للكون اللانهائى وإنه يستطيع السيطرة على هذا الكون اللامتناهى إلا قوة لا متناهية وأنه لو كان هناك ألف إله لكان إله قوة محدوده لما استطاعوا معاً أن يسيطروا على هذا الكون لأنه كون لا نهائى .

أما أن يكون هناك إله واحد ذو قوة لانهائية فانه يستطيع وبسهولة السيطرة على هذا الكون ومن فيه ولذه يقول لى أدعياء المنطق : ولماذا لا نفترض

أربعة أو خمسة آلهة لكل إله قوة لا متناهية.. وحينئذ يكون جوابى : أن القوة اللامتناهية التى يتصف بها الله القدير .. تضم كل الكون و تسيطر عليه ومن ثم فانه لا يمكن بحال أن تشاركه فى الكون قوة أخرى . . وأن معنى قوة لا متناهية إنها قوة غير محدودة .. أو أنها تسيطر على الكون الغير محدود . ومعنى ذلك أن قوة أخرى لا يمكن أن تحل لها إلا الصفر . ومعنى ذلك أن الله واحد لا شريك له فى عظمته أو فى قوته . . إذ أن قوته وعظمته لا نهائيا نطلب عفوه ورضاه ولا نخشى إلا إياه .

كما أننا إذا تصورنا هناك إلهين فى هذا الكون .. ولكل إله قوة ولكل إله خلق .. لما استحال علينا أن نتصور أن يذهب كل إله بخلقه ويسن فيهم شرائع ويأمرهم بأوامر .. ويكلفهم بتكاليف يختلف محتواها عن غيره من الآلهة . . ولما استحال علينا أيضاً أن نتصور أن تدب الخلافات بينهم . . أن يحارب الواحد منهم الآخر حيث نحن بين هذا وذاك . . وهذا ما لم يحدث وما لا يمكن أن يحدث .

يعزز ذلك أن الله جل وعلا قد أرسل رسله بالبينات والهدى داعيا إلى عبادته وحده مبيناً لنا وهو الصادق القوى إنه واحد لا شريك له . . وإذا يا عباد الله قوموا إلى ربكم عابدين شاكرين . . ماضين نحو سعادة مستقبلكم الحقيقى .. تاركين وراء ظهوركم أدعياء المنطق والفلسفة إتباع الجدل العقيم والسفسطة الكلامية .. يتلاعبون بالألفاظ والعبادات .

يجابهنا أحدهم قائلا : أنت تؤمن أن الله على كل شيئاً قدير . فهل يستطيع الله أن يخرج زمن الكون .. فليعلم أن هناك كلام لا محل له من .

الأعراب ، فكلامك لا محل له من المعقول إذ كيف تطلب منى أن أتصور أن الله وهو قوة عليا فى الكون قوة لا نهائية حية تعقل وتسمع وتبصر وتقدر وتدبر ، وتسيطر على الكون كله ، بالرغم أن الكون لا نهائى فى حجمه وفى كمية المواد التى يحتويها ، ويدبر كل شىء فى الكون رغم أن الكون لا متناهى فيحسن تدبيره ، وتقدير كل دقيقة فى الوجود رغم أن الوجود لا متناهى فيحسن التقدير .

كيف منى أن أتصور قوة الله العظيمة الموجودة فى كل الوجود والموجوده فى كل زمان ومكان ، فليس هناك مكان تستطيع منطقياً أن تقول أنه خال من قوة الله وليس هناك من زمان خلا أو يخلو أو سيخلو من قوة الله العظيمة ، كيف تطلب منى أن أتصور أن هذه القوة تعجز عن فعل شىء ما ، هذا ما لا يمكن أن أتصوره ، لكن الحق والمنطق يا أدعياء المنطق أن الله على كل شىء قدير .

ثم ، إنه لو كانت قوة الله تخرج من الكون ، لما كان الله إله يستطيع كل شىء إذ أن القوة المحدودة لا تستطيع السيطرة على العالم ، ولكن سبحان الله عما وصف ، ولله القوة اللامتناهية التى لا يخلو منها أى ذرة من أى مكان من هذا الكون ، الذى لا أول له ولا آخر ، وأخيراً : هل يليق بالإنسان أن يتحدى خالقه وخالق الكون معه ويقول له إذا كنت على كل شىء قدير فهل أنت قادر على الخروج من الكون ، أنه الجدل العقيم الذى لا يجدى ولا يفيد وأنها السفسطة الكلاميه التى لا قيمة لها إلا قيمة سالبة ، فهى تبدد الطاقات وتحطم إرادة الخير فى العالم وتقتلع منه كل ما نبحث خيره ليحل محله أشواك الشرور والأذى ولا أدرى لماذا كل هذا ، لماذا الجدل العقيم لماذا السفسطة الكلامية ، وما الذى يدعو لها وطريقنا واضح لا عوج فيه ولا التواء فيه

نحن نحرص على مستقبل آمن و نفكر ، نحن نجد حولنا الكون يحفل بالمادة
و نفكر نحن ندرك أن الشيء لا يمكن أن يوجد من اللاشيء أو من ذات
اللاشيء و نفكر ولنستنتج ، و حينئذ نقرر بالواقعية و بالمنطق صادقين أن لا بد
من وجود قوة عظمى قد أوجدت المادة التي نحن منها ، ثم نفكر وننظر
للامور نظرة عقلانية و ذلك كما بينت سلاحنا الوحيد الذي نجابه به تحديات
الزمان ، و نجد حولنا في هذا العالم كثيراً من الجمادات تخضع لأسس
و نظم وقواعد ثابتة لا تحيد عنها ، رغم أن ماعهدناه من طبائع الأمور أن الجماد
ليست له أي ارادة لا بالنسبة لنفسه ولا بالنسبة لمن عداه وحينئذ نقرر أنه لابد
من قوة عليا قد أوجدت هذه الارادة أو قد منحت هذا الجماد إرادة بالنسبة
لنفسه أو إرادة بالنسبة لمن عاداه كما نجد حولنا وفي الكائنات الحية على وجه
الخصوص إرادات لا تنبع من جهازها الارادي ، ورغم ذلك فهي ضرورية
لبقاء الكائنات الحية وضرورية لاستمرار نوعها ، وحينئذ ندرك إدراكا
وثيقا أن الذي أوجد هذه الارادات قوة عليا وأن الذي خلق الالهامات والغرائز
في الأحياء قوة حكيمة عليا هي قوة الله الحكيم ، وحينئذ نؤمن و نتيقن من
وجود خالق السماوات والأرض ، و ندع جانبا وساوس شياطين الانس والجن
وافتراءات الآثمين منهم .

المصير

[illegible] المصير [illegible] كلمة ، هذه الكلمة الحاسمة التي تفرق في حقيقة
الامر بين الشرفاء والاخساء ، وبين الابطال والخونة ، بين ذلك الذي
[illegible] حياته قوامها التفكير والتريث ، وقوامها الغش والخداع ، أو قوامها
[illegible] والخاتلة وبين ذلك الذي يستبدل الجهد والعرق والدم مستهينا بالالم
[illegible] فداء لمصلحة الحق ، والرقي بالمجتمع الانساني إلى درجات عليا

المصير ، ويالها من كلمة ، هذه الكلمة التى تفوق بحسم وجلاء ووضوح بين أولئك الذين عبثوا بمقدرات شعوبهم وبقيم أمتهم حتى أخذتهم نشوة السكر والعربدة أو الذين شربوا من دماء الابرياء حتى أحمرت عيونهم وانتفخت أوداجهم أو الذين عاشوا حياة سعيدة ورغدة على أشلاء الابرياء من بنى جلدتهم ، و بين الذين باعوا أنفسهم وجادوا بالدم الذكى و بالروح والمهجة فى سبيل ان تكون كلمة الله هى العليا و فى سبيل أن يكون الدين كله لله ، و فى سبيل حرية أوطانهم ، وعزة بلادهم ومجدها ورخائها (وكلمة المصير) .

تعنى للانسان شيئا هاما بالغا فى أهميته أقصاها ، ذلك أنها تحمل له معنى الامل ، ولولا الامل ما سكنا وما كانت لنا قيمة فالامل يفتح أمام الانسان أبواب العمل والامل يحث الانسان على الاستبسال ، فى مقاومة الامواج الباطلة التى تتكسر تباعا على صخرة الحق الصامدة ، الاستبسال فى مقاومة العواقب الآثمة والرياح الخبيثة التى ما فتأت تهب بسمومها على سفينة الحق التى تحمل أتباع الحق وعباد الرحمن الواحد الاحد وتجرى بهم فوق طوفان الضلالة الذى أغرق القرن العشرين بأمواجه ، وتجرى باسم الله مجريها ومرسيها الى الأرض الامان الى كلمة المصير حيث يجد أولئك الذين أحسنوا الحسنى وحيث يضج بالعذاب من ضل سواء سبيل ، ونحن نعيش بالامل ونستمد منه سعادتنا كما نستمد منه القوة والعزم والصمود ، وسعادة الحاضر بدون أمل لا تعنى للانسان الا شيئا تافها لا قيمة له تحق هذه الكلمة فى حد ذاتها كلمة مطاطة وغير محددة فأين هى سعادة الحاضر وما هو الطريق اليها وهل يسلك الانسان اليها طريق المال والثروة ولا أعرف للمال قيمة ترتفع عن كونه وسيلة لابد منها لغاية لا غنى عنها أعنى وسيلة الحصول على ضروريات الحياة ولقد يختطب انسان كادح أو يقضى نهاره تحت وهج الشمس لقاء ما يسد رمقه

ورمق أولاده ، لكننا نجده سعيداً بهذه الحياة راضياً عنها بدرجة تزيد عن ذلك الذى قد يؤذيه مس الحرير ويعتبره خشنا وغير رقيق ، ثم حتى لو تحققت سعادة الحاضر وكانت على أقصى ما تكون أو ما يمكن أن تكون فان مسيرة الايام تجرى وتجرى ويأتى ذلك اليوم الذى يختتم هذا الحاضر السعيد وينهيه بمرارة الموت التى تجب وتمحى كل لذة مهما كانت ، بل كل ما سعادة أو سرور شعر به الانسان فى حياته ، تماما كجماعة من الناس أخذوا يأكلون سكراً متفاوتاً فى كميته فذلك لا يجد الا الفتات وذاك يأكل حتى يمتلىء ، ثم فرض عليهم أن يختتموا كل ما أكلوه بشراب مر من الصبر أو من العلقم يذهب كل ما كانوا قد تذوقوه من حلاوة السكر ويشعرهم جميعاً بالمرارة القاتمة فلا تفاضل بينهم ولا نستطيع ذلك .

بل اننى أرى ويقر عقلى أن من عاش حياة خشنة جادة ستكون مرارة الموت شيئا ليس عليه بالغريب ولكنها فقط تفوق كل مرارة ذاقها لكن ذلك الذى عاش حياة مترفة رغدا ستكون مرارة الموت شيئا غريباً عليه يتجرع كأسها فى ألم وأسى يفوق كل خيالاته وكل تصوراته .

والشكل بموت والمرارة قائمة والعذاب شديد فى لحاظ قادمة . ولا بد لكل انسان مهما تلكأت به مسيرة الزمان أن يرد الحوض الذى شرب منه آباؤه وأجداده وتساءلت نفسه وتساءلوا معى المصير ومغزاه .

وليهنأ المترفون بعيشهم قليلا من عمر الزمان أو قليلا من مسيرة الايام وحتى تسلمهم مسيرة أيامهم الى لحاظ حرجة يتحدد فيها مستقبلهم الحقيقى ، وليضحك الضاحكون كثيراً فلا بد يوماً أن يذرفوا الدمع فياضاً ولا بد يوما أن تبيت عيونهم اللامعة حين يسلمون جميعا الى لحاظ الموت لحظة النهاية ، وليدربه

ألمعبدين ، الذين يحلوا لهم ان يفقدوا وعيهم وأن يتجردوا من انسانيتهم وأن يهربوا من واقعهم فلحظات العمر معدودة تمضي وسريعا ما تمضي وتسلمنا ولا بد لها أن تنقل الى شحنة الحزن الى شحنة الالم الذي نحس معه بحقيقتنا وبقيمتنا .

وفي ظلال الحزن والألم يشعر اولئك الذين انكروا على الانسان حقه في التفكير والنظر العقلاني أنهم كانوا مخطئين كما يشعر أولئك الذين أغرقوا أنفسهم في دوامات الجدل العقيم والسفسطة الكلامية أنهم كانوا على غير بصيرة وعلى غير هدى كما يشعر كل من ضيع حياته سدى مستخفا بها وبانسانيته معها بأنه عبث بشيء ثمين .. وبأنه ضيع فرصة لن تعود للسمو بنفسه وبانسانيته إلى مراتب كان من الممكن له أن يبلغها لو احترم ذاته الانسانية ونظر إلى الكون نظرة عقلانية نقية بدون عبث وببعض الاهتمام .. يندم حيث لاينفع الندم ويتحسر ولا تزيده الحسرة إلا مرارة وتألما .

وابدا لاتأسوا ولا تحزنوا يامعاشر المناضلين .. فالنا من الحاضر إلا المعنى والقيم على الأرض نعبد قادرا رحمانا .. ولتعملوا بالأمل وبدون يأس أو قنوط .. فلن يضركم عدوكم بأكثر من الموت الذي سيشرب هو كأسه لا محالة .. كما أنكم لا محالة شاربوه لاتخوفوا حر الشمس ولا تهابوا برد الشتاء فلن يكون أشد مضاضة على أنفسكم من ألم الموت ومرارته ولتعيشوا حياتكم بكل لحاظها في جهاد ونضال في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين أنكروا انسانيتهم وقيمهم هي السفلى

وها هي الأيام تمضي وتمر سراعا كبرق خاطف أو كريح عاصف أو تطير مشروع .. ولحاظ العمر تجري كالسحاب .. وكل مايبدو للعين بعيد في زمانه تمر مسيرة الأيام ثم تعدو وتتركه خلفها فترى غدنا أو بعد غدنا

قد غدا أمسنا أو قبل ذاك الأمس ، وربيع العمر يمضى وسريعا ما يمضى وخريف العمر يأتى وسريعا ما نراه ، والليل يتلوه نهار ثم يسود النهار بظلام الليل وتدق منا القلوب والوقت يمضى ومع كل خفقة القلوب العمر يجرى ويبدو نهار خلف ليل سابق الزمن ، فالليل يأتى خلسة والصبح يأتى بالمحن والزمان يدور فى حياة مظلمة والظلام يطول نفس مجرمة فلا ، لا تركنوا النهار ولا تيأسوا من ليل يجليه نهار والصبح يسود بليل ، قد مضى الأمس كأنى لم أكن فيه ، كخيال جامح لا أنس يدريه أو كظل سابح لا شئ يحويه ، أو كبرق خاطف لاح ثم اختفى ، وهكذا تنتهى أيامى ويمثل ذلك تختفى أحلامى وأرى مصيرى ويراى ، ولا تبددوا أيامكم سدى فعين الزمان الحمراء تطاردكم فى الليلة الظلماء أو فى فلق النهار ، ومسيرة الأيام تسلمكم إلى اللحظ القائمة إلى لحاظ الموت ، إلى لحاظ المستقبل الحقيقى ، وطوبى لكم يا معشر الأبرار فى رياض الله التى خلق الأرض ركورها ، خلق الرياح وسيرها ، خلق الطير وصورها خلق الأنهار وأجراها ، كل ذلك من العدم ، من اللاشئ ، من ذات اللاشئ وبدون وسيلة ، وأوجد الضوء والظلام وأوجد الدفء للأمام وأوجد الصوت والكلام والطاقات وأبقاها ، ولقد نسأل أنفسنا كثيرا عن ماهية الطاقة فالضوء طاقة أو هو ترددات فى الشئ وفى اللاشئ تجعل العين تبصر الأشياء ولقد يقول رجال العلم أنها أمواج تخرج من مصدر الضوء أمواج من الطاقة ما أن تسقط على العين حتى يؤثر فيها وتجعلها تبصر ولكن سبحانك ربى ولماذا لا تؤثر موجات الحرارة وهى طاقة أو موجات الصوت فى العين وتجعلها تبصر .

وتضىء الشمس وهى هنا جسد يملؤه ... فتشع ضوءاً ممزوجا بالحرارة

ويلتقل إلينا الضوء دون أن تنتقل إلينا الشمس أو ننتقل نحن إليها ويقطع الضوء مسافة طويلة ويسير إلينا رحلة شاقة وعصيبة ، يسير فيها اللاشيء ، فكيف باللاشيء تحمله .

ولقد يقول لنا العلم ويقرر لنا رجالاته أن طاقة الضوء تسير في الهواء في شكل موجات من مجال مغناطيسي متعامد عليه مجال كهربي ، وأقول سبحانه سبحان الواحد الأحد الحي الذي لا ينام الذي جعل لنا المجال المغناطيسي والكهربي يسيران متعامدان ست وتسعين مليون ألف من الأميال حتى يصل إلى عين إنسان فيضيء أمامه الحياة سبحان من جعل المجال المغناطيسي والكهربي المتعامدان يدخلان العين وبكل أمان ويتقلان للإنسان نور حياته .

ولقد يقول رجال العلم أن في العين شبكة حساسة للضوء تتكون من أهرام تسمى أهرام ملبيجي ، وحسبنا سبحان من بني أهرامات ملبيجي في كل عين وجعلها للضوء حساسة سبحان من وهب الإنسان عقلاً ذكياً ، وعينا ترى وأذناً تسمع ولسان ناطق فصيح ولقد يسأل الإنسان نفسه ما معنى أن أشعر بالحرارة والبرودة وما هي الحرارة والبرودة وما هي ماهية كل منهما ولقد يقول له رجالات العلم قولاً يفسر له ظواهر الأشياء لكنه لا يغوص إلى أعماق مغزاها ومعناها .

فسبحانك يا خالق خلقت كل هذا وأحسنت لهم صنعها وقدرت كل شيء فأحسنت تقديراً ودبرته فأحسنت تدبيره وهذه الأرض تدور حول تلك الشمس من ماضي العهود وبليل ونهار يختفي ثم يعود تظلم الدنيا ويمضي نورها ثم يأتي الصبح والنور يعود ورغم أننا نعلم علم اليقين أن الأرض جماد لا يعقل ولا يملك أية إرادة بالنسبة لنفسه أو بالنسبة لمن عداه وما زال كوكب الأرض يدور حول شمسه بلا ملل .

وما زالت ظواهر النجوم تعطينا بريقا من الأمل .

وما زالت الرياح والأنهار تجرى بلا كلل

وسبحانك ربى .

الأسماك فى البحور ترجو رحمتك وتسعى إلى طعام قدرته لها وطيور الجو فى سمائها تطلب العطاء من خالقها وتخرج خماصا إلى ارزاقها وترجع بطانا برزق باريها .

وكل قطرة ماء : وكل نسمة من هواء أنت خالقها ، وباسم الله تجرى فى السماء أو فى الروضة الغناء ، حيث تسقى زرعا أخضر يصفر ثم يصير هشيما تذروه الرياح وتوقد منه نيرانا تتأجج تشع علينا الدفء وتحملنا فى حبور .

ولقد يستلهم النبات من فيض رحمة ربى مايزيد به حسه وإحساساته فيحور أوراقه إلى أشـــواك حتى يحفظ بذلك مائة من البخر . ويدس طعما مرا فى أوراقه حتى يذهب بذلك عن نفسه أذى حيوانات العشب برغم أنه قد يضع رحيقا حلوا فى أزهاره حتى يشرك النحل فى الحفاظ على نوعه دون أن تدرى ولقد ينصب الاشراك للحشرات يوقعها بحيلة ماكرة حتى يتغذى على جسمها ويستمد منه عناصر لازمة له .

ولقد تستلهم الاسماك من فضل ربى طريقا طويلا تسير فيه دون ما ضلال وتعود منه صغارها وكانها قد سلكته من قديم الأزل .

والطير والحيوان يرعى صغاره ويحنو عليهم من أين ذاك الحنو أو ذلك الحنان ؟ ؟ أنه من الحنان المنان فى قلوب الأمهات قد غرسه وعلى مر الاجيال قد أبقاه ولولاه لصارت الدنيا جحيما لكن فضل ربى أبقاها جنة ونعيما ، والطير والنبات والحيوان أزواجا أزواجا ونقبل نحن فى حرص على تجديد أجيالنا بقوة الهامك لنا مولاى يا رحمن يا هادى .

لا شك أن في ذلك لآية أى آية أظهر من الشمس وأكثر منها وضوحا فهذه الأنثى من السمك تقذف بيضها فى الماء بكميات كبيرة ، ثم يمر الذكر من السمك ليلقح هذا البيض حتى يصبح صالحا للفقس دون أن يتفقا أو يبرما المعاهدات .

ولقد يعلن لنا رجال العلم أن السمك يبيض كميات كبيرة من البيض لأن كثيرا منه يتلف أو يموت فقسه وهو صغير ومن ثم فهو فى حاجة إلى كميات كبيرة من البيض ليحافظ على نوعه ولكن هل أدرك السمك هذا أبدا أنه لم يدرك بجهازه العصبى لا يفكر ولا ينظر هذه النظرة العقلانية إلى واقع الأمور .

ولكن رحمة الرحمن قد أدركته بنورها الفياض فدفعه دفعا لا إراديا إلى الحفاظ على نوعه وتجديد أجياله .

وفى كل شىء للرحمن آية ؛ فى البحر آية ، فى السماء آية ، ومع كل قطرة من قطرات بحار الأرض آية ، تدل على الحكمة والقدرة .

فهذه زرقة البحر ، الرهيبة ، نلق إليها النظر المجرد فترد إلينا أصداء الجلال والحكمة ويتوه النظر فى الزرقة التى تمتد بأكثر مما تمتد الرؤية أو تستطيع أو تحيط ، تماما كما تصدح الموسيقى الشجية التى تذيب الفكر والوجدان فى نغماتها الشجية ، حتى لنكاد نرى من خلالها أنفسنا ، وحتى لتكاد أنفسنا أن ترانا ، وأن ترى الوجود حولنا .

ولقد يقلب الفنان ناظريه فى زرقة السماء حتى يخوه به الفكر ، ولقد يتأمل الانسان فى زرقة هذه السماء وبهائها فى الليل والنهار ، فى الأصيل والضحى ، ومع إشراق الشمس أو أفولها ، أو إشراق البدر الجميل أو غيابه والعقل لكم يا معشر الأخيار ، فى رحمة الله الواحد الأحد

الذى فكرتم كثيرا فى خلقه وفى قدرته وعظمته الذى آمنتم به بعقولكم وقلوبكم وباروا حكم .

والذى دافعتم عن دينه حتى آخر رمق فى حياتكم و إلى آخر قطره من دمائكم

فسمت بذلك نفوسكم ، نقت بذلك سرائركم وترقيتم بانسانيتكم إلى مراتب عليا والآن فهنيئا لكم المصير او المستقبل الحقيقى فتلك الكلمة الحاسمة قد منحتكم سعاده لانهائية سعاده مستديمة سعاده لن تجدون بعدها شقاء أنها سعاده السلام انها سعاده اللانهائيات التى لا يحدها حدود ولا تقف فى طريقها ارقام فلقد قدرتم انسانيتكم حق قدرها ولقد ابيتم ان تحتقروا وجودكم على هذه الحياه

ولقد سارعتم إلى الحياة بجدية لا تعرف العبث وبتصميم لايعرف الاهمال اليه سبيلا فنظرتم اليها نظرة عقلانية جادة مدركين أن النظر العقلانى إلى الحياة هو كل ما تملكون من سلاح لمجابهة تحدياتها .

ولقد رأيتم ذلك الكون من حولكم يحفل بالمادة و يزدحم بها . . فهناك تلك الارض أو ذاك القمر وهناك هذي الشمس أو ذاك الشجر .. وهناك الهواء والبحار . . والنجوم . . وحين رأيتم بين العقل وبين العلم ودجاله ان اللاشىء ليس شىء . . ولا وجد الشىء منه مهما كان ومهما كانت احواله تيقنتم وعرفتم ان الذى خلق الشمس والقمر إله كبير ، عظيم هو الله الرحمن الرحيم

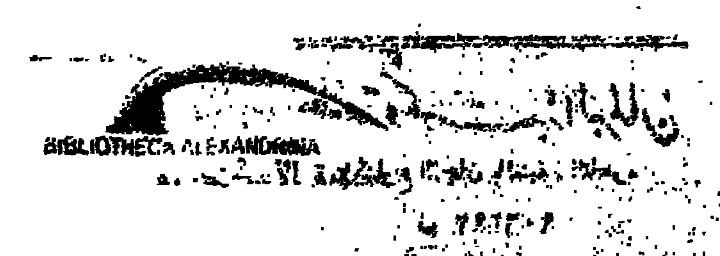
ولقد رأيتم حولكم في الكون شيئا عجايب ... جماد فى الكون منتظم فى أحواله [illegible]

وكيف ينتظم الجماد وعنه تعـــلم بأنه لا يملك على نفسه إرادة ، وليست له على ذاته أى إرادة لا بالنسبه لنفسه ولا بالنسبة لمن عـــداه ، وحين رأيتم الضوء الذى ينتظم فى جريانه ، وحين رأيتم الأرض التى تجـذب نحو الشمس وتدور حول نفسها ، عرفتم إن الله الذى أخضع الجمـادات لأسر ونظم ثابتة هو الله الذى أوجدها من العدم .

وحين رأيتم الأسماك تبحث فى البحور عن الطعام ، وحين رأيتم الأسمـاك تسعى نحو غايات ترام ، وتعود منها لحياتها المستقرة فى سعادة عرفتم أن من خالق السماء آثارها ، وتدفعها إلى التبكون كذلك رحمة منه بها وليتفكر أولوا الألباب ، وحين رأيتم الأنواع والأجناس من كل نوع تتبكاثر وتتوالد بنظام ، وانتظام ـــ وبإلهام من الرحمن كان . بإلينا ، ضمانا على مر الأيام . وحين رأيتم الوحوش رغم ضراوتها ووحشيتها تحمل الحب والحنان لأبنائها ، وكذلك الثعابين والقردة والإنســـان والأسماك ، كل يعطف على مخلوق منفصل عنه وبدون ما إرادة ذاتيـة منه ولكن بدافع من الرحمن خفى ويدافع منه أعظم من كل إرادات البشر .

وحين رأيـــتم كل ذلك آمنتم بالرحمن جل من خلق وعبدتوه عبادة بكل ما أوتيتم من قوة وجهد وتصرتم دينـــه وصبرتم على البلوى وكالحتم فى سبيله وتركتم الشكوى ، وبذلتم النفس والنم والمهجة رخيصــــة فى سبيله وفى سبيل رضاه ، حق لكم الآن وأنتم فى مستقبلكم الحقيق أن تفوزوا برضوانه . وأن تنعمو بالخلد فى حياته ، تلك الجنات التى لا مر فيها ولا ضرر لا هم فيها ولا حزن ، وفيها السعادة دائمة والفوز يغشم فى المواقع الوراقة فهنيئا لكم ، حياة هانئه ، وسلام مقيم وخلود ، خلود أيها الانسان فنا البهاكية

به فمن الآن لن تموت لن تفنى ولن تمرض ولن يصيبك السقم ولن تنهك أو تخور قواك بل انت فى عز ورخاء ونعيم مستديم لايزول وهناء لايدانيه هناء انت الان تنعم برضاء الله وذلك النعيم وذلك الهناء هو فى واقع الأمر ما أرجوه لكل انسان فى هذه الحياة بدافع من حب الانسانية الذى يجب ويلزم أن يعمر به قلب وأن يعمل به كل عقل وعلى صفحات هذا الكتاب .. وبهذا الجهد المقل .. حاولت وسأحاول على الدوام أن أذكر .. كل من استطيع تذكيره بكل ما يجب التذكير به أذكر نفسى واذكر الانسانية جمعا فهذ هو قصارى ماتستطيعه فى هذا الزمان وذلك أيضا كل ما كلفنا به الله جل وعلا حيال انفسنا وحيال الانسانية والناس أن نذكر وان نبلغ ما نعلم إلى الناس حتى يعملوا بما علموا ونحن علينا التبليغ والتذكير ولسنا محاسبين عن الناس عملوا أولم يعملوا وها نحن والله شاكرين قد بلغنا فليشهد الناس والله هو الوكيل ولقد يسعدنى يشرفنى أن أتمثل بقول الحبيب الاعظم والنور الاتم الاكمل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فى قوله اللهم أنى قد بلغت اللهم فاشهد ؟



مطبعة ومكتبة البرلمان
٧ شارع الزجاج بالهيئة - القاهرة
ت ٩٠٦٢٩٢

